أ.د/ عبد الله بن أحمد الفَيْفي

طائر الثَّبَغْطَر

رواية





أ.د/ عبد الله بن أحمد الفَيْفي
طائر الثَّبَغْطَر
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

طائر التَّبَغْطِر

طائر الثَّبَغْطِر

رواية

أ.د/ عبد الله بن أحمد الفَيْفي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1258-2

توزيـــع



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة الغلاف: Moonlight Raven, by Bio Workz
بورتريه صورة الكاتب: **نجاة خطيب**
تركيب خلفية البورتريه: **زهرة زيراوي**
تصميم الغلاف: **سامح خلف**

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

سَفَر

«كَـثَـبَـغْـطِـرٍ» تَهْفُوْ بَقايا رِيْـشِـهِ

مِنْ ذِمَّةِ الذِّكْـرَى خَـيـالًا مِنْ نَدَى!

يَذكُره الناس ويكاد لا يَعرفه أحد. غريب، غامض، يقال إنه طائر مهاجر، وإنه لا يهجع ليلًا. حتى اسمه لا يُعرف أصلُه. ما سمعتُ حكايات وليد موسى إلَّا توارد إلى خيالي ذلك الطائر المجهول، أو شِبه الأُسطوري.

الفصل الأوّل

«على الأرض استلقَى؛ حتى لا يقع!
لا يَلبس قميصًا؛ حتى لا يسرقه أحد!
لا يُحِبُّ امرأةً؛ حتى لا يَتركه أحد!...
لو لم يُولَدْ، لَمَا كان عليه أن يموتْ!»
(أولي كومندا سانتغيرات)[1]

من المألوف أن يَعرف راعي الضأن والشاء أحوال البيئة، وتقلُّبات الطقس، وأحداث الماضي في نطاق تجربته المحدودة. لكنَّه من غير المألوف أن تجد مثل ذلك الراعي يُحدِّثك في الفلسفة، والتاريخ، والسياسة الدوليَّة، ويُتقن غير لغةٍ واحدةٍ، فضلًا عن تمتُّعه بمَلَكَة أدبيَّة، وإحاطته بشؤون

---

[1] شاعرة ألمانية، من نصّ بعنوان «دون مجازفة». نقل مختارات من شِعرها إلى العربيَّة (فؤاد رفقة)، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٤).

الثقافة والفكر. تلك هي المفارقة التي سمعتُها عن (وليد موسى)، ولم أصدِّقها. وليد موسى الملقَّب بين بعض الناس بالجِبالِيّ، وبين آخرين بالمَعْبُول، وبين غيرهم بالطيَّار.

أَذْكُر أنَّ أَوَّل مَرَّةٍ تناهَى إلى سمعي خبره كان وأنا طالب في المرحلة المتوسِّطة، في الثالثة عشرة من عمري. وما كان يثيرني إذ ذاك أكثر هو ما شاهدتُّه من وضع الرجل مسْجُونًا يجرُّ سلاسله من مركز الإمارة، أو من المحكمة إلى مكان حبسه، أو من مكان حبسه إلى مركز الإمارة أو المحكمة، يصحبه الحَبَّاس. كان مشهدًا مثيرًا بحقِّ إنسانٍ مثله، لا يُشبهه- مع الفارق- إلَّا منظر الرئيس العراقي صَدَّام حسين في سلاسله مأخوذًا إلى التحقيق أو إلى المحاكمة. كانت المدرسة تقع في مكانٍ شاخِصٍ يُشرف على السجن تمامًا، وكُنَّا نترك الفصول- طُلَّابًا ومدرِّسين- لمشاهدة الرجل آتيًا من سجنه أو عائدًا إليه، ولاسيما في يوم

الاثنين من كلِّ أسبوع، وهو يوم السوق في المنطقة. استمرَّ ذلك قُرابة شهر. لم يكن هناك من تفسيرٍ متَّفقٍ عليه بين الناس لما يحدث، إلَّا ما قيل من أنه قد قال ذات مرَّة كلامًا جَدَّف فيه. ما كُنَّا نفهم من معنى هذا الكلام إلَّا ضبابًا يزيده غموضًا. غير أن رواية أخرى كانت تذهب إلى أن الحقيقة أنه إنما أُوقِع به لِخِلافِه مع بعض مشايخ القبائل، ولأسبابٍ خاصَّةٍ تتعلَّق بمُشاكسته إيَّاهم، وتمرُّده على أعرافهم؛ ولذلك لم يجدوا بُدًّا من تلفيق تلك التُّهمة له وتقديم شهود زُوْرٍ ضِدَّة.

لَمْ أكن أعرف يومئذٍ مَن يكون وليد موسى، ولماذا سُجِن، على وجه التحقيق، وما قِصَصه الأخرى، ما يدور منها بين الناس وما لا يدور؟ لم أعرف شيئًا حقيقيًّا عن غموض هذا الإنسان، ولا عن حكايته الفظيعة التي أودتْ به إلى ما أودتْ. كلّ الذي أدركتُه أن اسمه وليد موسى من

إحدى القبائل المجاورة، تُدعَى قبيلة آل شريف. وكنتُ أُشاهِد المعجبين به، من الشباب خاصَّة، يتحلَّقون حوله، حتى وهو في تلك الحال. يزورونه في سجنه، كما يصحبونه في الطريق. بينما هو يَلتفُّ بغموضه، فتًى أسمر طوال، عابرًا الطريق، هبوطًا إلى سجنه أو صعودًا منه، لم نكن نَظْفَر بتبيُّن ملامح وجهه تمامًا. أمَّا أنا فقد كنتُ، لصِغَر سنِّي، لا أجرؤ على الاقتراب. هذا إضافةً إلى ما أُشيع حوله من أفكار، تتعلَّق بالدِّين تحديدًا، تبعث على مزاجٍ من النفور والفضول، والرهبة، والإعجاب، في آن، بهذا الشيطان المريد، كما هي الصورة النمطيَّة عنه في الذهن إذ ذاك. ومع هذا فقد تَلَصَّصْتُ في إحدى العصريَّات لأُشرف من وراء صخرةٍ سوداء عالية تُطِلُّ فوق السجن غير بعيد، لأرى مجلسًا يلتئم فوق سطح السجن، مع بعض السجَّانين ونزلاء السجن، ومَنْ بَدا لي أنهم من مُريدي وليد. أخذتُ أسترق السمع إلى

ما يدور. كان هو نجم المجلس، وإنْ لم أستطع تمامًا سماع ما كان يقول، ولو سمعتُ، لما كان في مِكْنتي إذ ذاك الاستيعاب، لكنَّها ظلَّت صورة عالقة بالنفس، وأسئلة صارت مع العمر تنمو. عُدْتُ بعد غروب الشمس لأحكي بعضها لأُمِّي، فانتهرتني بلُطفٍ عن تكرار الاقتراب من السجن وأهله.

لقد بقيتْ شخصيَّة الرجل منذئذ مثار الجدل، حتى بات أسطورة شعبيَّة حقيقيَّة. وبقيت أخباره وحكاياته تنتشر بين الناس، رجالًا ونساءً، منها ما يمكن تصديقه، ومنها ما بات فيما يبدو موضوع المسامرات، وأحاديث المجالس، وتخرُّصات القُصَّاص لتَحْلِـيَة ما يقُصُّون كلَّ مساء. كما راحت حقيقتُه تشغلني أنا، على المستوى الشخصيّ والاجتماعيّ والخياليّ، على الرُّغم من أنه، بعد تلك الأضواء

المسلَّطة عليه إبَّان سجنه، قد اختفى فجأة عن المشهد؛ لأسباب أجهلها.

إلَّا أنني بعد تخرُّجي من الجامعة وزيارتي للمنطقة في إحدى الإجازات الصيفيَّة، فوجئت بوليد موسى يظهر مجدَّدًا، لكن منعزلًا، هذه المرَّة، مقيمًا في دارةٍ متواضعة. والدَّارة: منزل صغير مدَوَّر، من دَوْرٍ وحيد. قد يكون داخله قاطع، أو «شَجْب»، كما يسمُّونه- لفصل الدارة إلى حُجرتين، وقد لا يكون. وذلك أبسط البيوت هناك. فيما البيت المعتاد يكون «مَفْتُوْلًا»، أي قَصَبَة دائريَّة، مكوَّنة من ثلاث طبقات، تُسمَّى السُّفْلَيَان منها: دارتين، والأخيرة تُسمَّى: «الـمُشْراح». وتكون الدَّارة السُّفلَى للبَقَر والحيوانات الأخرى، وربما للدَّجاج أيضًا، إنْ وُجدت، وتُسمَّى «امْدارة امْسفلَى»، أو «أسفل بيت»، والدارة التي فوقها فيها مجلس الضيوف، حيث «القِعْد»، جمع «قِعادَة»،

أي الأَسِرَّة التي يُجلس عليها أو يُنام، وفيها «التِّخات»، جمع «تَخْتَة»، أي طاولة، لوضع القهوة أو الشاي وما شابه. وفي هذه الدَّارة الفُرش، وما يلزم للضيافة، أمَّا الدَّارة العُليا «الـمُشْراح»، ففيها المطبخ، وتَنُّور الـخبز، ومكان العائلة. ويتميَّز الـمُشْراح بأنه ذو شُرفةٍ تُطِلُّ على الخارج، حيث يسقفون نصف تلك الدَّارة ويتركون النصف الخارجي متنفَّسًا، ومتشمَّسًا، يجلسون فيه، أو يُطلُّون منه.

ذلك كان منزل وليد موسى، إذن، مجرَّد دارة. وقد دفعني الفضول القديم، مع تخصُّصي الجديد في الدراسات الاجتماعيَّة، إلى نبش أمره، ومحاولة التعرُّف على قصَّته. إذ أستطيع القول الآن، وبعد مضيِّ خمسٍ وعشرين سنة، إنَّني أعتقد أنَّني قد عَرفتُ أُسطورة الرجل كاملةً تقريبًا.

لكن لماذا أجده من المهمِّ أن أروي للناس هنا أسرار هذا الرجل الغريب؟

ذلك لأنه هو أَذِنَ لي بذلك، وائتمنني عليه، وهو ما لا يعرفه كثيرون، حتى من أقاربه، وأنا اليوم الوحيد- سِواه- الذي يعلم ما حَدَثَ. ولربما، بعد هذه الرواية، يعلم كثيرون غيري أطرافًا ممَّا حَدَث، أو يدَّعون. وهي أحداثٌ، حين عرفتها، أدركتُ أنها بالغة الخطورة والأهميَّة والعِبرة. فوجدتُ من واجبي العِلْمي والاجتماعي والإنساني عرضها بدِقَّة، ومن فَمِ صاحبها، لا غيره، بلا زيادةٍ أو نقصان. إلَّا ما قد أُضطرُّ إليه من تعريفٍ بما غمض من إشاراته البيئيَّة أو التاريخيَّة، هنا أو هناك.

لقد كنتُ قبل هذا قد عرفتُ أطرافًا من قِصَّته المتداولة، على تضارب الآراء حولها. سألتُ عنه عَمِّي، وناقشتُ موضوعه مرَّةً مع خالته. كما سألتُ عنه معظم الناس، فوجدتُ أكثرهم يتَّهمه بالهلوسة والجنون. أمَّا كبار السنّ، فكانوا غالبًا يَعْزُون إليه مع هذا أنه ربما يقول كلامًا

يبدو لهم منه كما لو كان يَتنبَّأ، أو يَدَّعي النُّـبُوَّة. كِلا الفريقين كان مُضرِبًا- في الغالب- على تجنُّب الإصغاء إليه، في كلِّ حال، أو حتى الحديث عنه بجدِّيَّة. حتى إنَّ أحدهم، وكنتُ أظنُّه من أعقل الرجال وأعدل الناس، ما أنْ سألته عنه حتى تبسَّم في وجهي باستخفاف، وقال:

- الطيَّار؟
- وليد موسى... (قلتُ).
- ...«مَعْبُول».. الحمد لله على نعمة العقل والدِّين!...

وأَعْرَض عنِّي، ولم يُبْدِ استعدادًا لمزيد من الكلام عنه.

كان أبو وليد وأُمُّه قد تُوفِّيا، حينما عُدْتُ إلى «الدِّيْرَة»، أمَّا عمُّه وإخوته، فلم يكن موقفهم يختلف عن الآخرين، إلَّا بما يُظهرونه أحيانًا من عاطفةٍ نحوه. لم يكن الناس يَكْذِبُوْن في ما يقولون، بطبيعة الحال، لكنَّهم لا يقولون إلَّا ما

يسمعون، ولم يكن أحدهم- وإنْ عَرَف جزءًا من الحقيقة- يعي خلفيَّاتها ويُدرِك تفاصيلها الأخرى. فيما الرجل الوحيد الذي يَعرِف كامل الحقيقة: مجنون! أو هكذا يقولون.

كلُّ هذا زاد في إغرائي- أو قُل: «إغوائي»- بمعرفة قِصَّة هذا الـمَعْبُول. وبعد محاولاتٍ عِدَّة، وأَخْذ رواياتٍ متباينةٍ عن حالته من أُناسٍ مختلفين، لم أجد لدى أحدٍ من الناس أكثر من الأقاويل المشاعة والروايات المتداولة. لذلك قرَّرتُ المجازفة لاكتشافه بنفسي، ليس بدافع الفضول، كي أعلم قِصَّته، فحسب، ولكن أيضًا لعلِّي أستطيع مساعدته، في بحرٍ لُجِّيٍّ من مُحيطِينَ به، كانوا قد أصدروا حكمهم عليه واستراحوا؛ ربما لأنهم لم يفهموه، أو ربما لأنهم لم يريدوا أن يفهموه أصلًا، أو قد يكون الرجل مهووسًا، أو مجنونًا فعلًا، كما زعموا، فحقُّه المساعدة، لا النبذ.

ذهبتُ إليه. دلَّني أحدهم على أقصر الطرق إلى دارته. هي في حقيقتها شِبْهُ عَريشٍ قديمٍ بائس. بَدَتْ لي لأوَّل وَهلةٍ كأنَّ أحد جوانبها مفتوحٌ مباشرة على السماء، بلا سقف، فيما كان بابُها مُخلخلَ الخشب، مُحطَّم «المراكيز»- جمع «مِركاز»، كما يسمُّونه هناك- وهي: الأضلاع التي يُثبَّت فيها الباب. وبعد طول انتظاري، وأنا أنادي باسم الرجل، على عادة أهل المكان؛ حيث لا جَرَس هناك، ولا قَرْع باب، وإنما نداء حتى يَستمع أَحْدُ مَن في البيت. بل مِن عادتهم، إلى جانب النداء، أنْ إذا دخل المرء بيتًا، وبعد أن يُنادي على أهله ويستأذن في الولوج، لا بُدَّ أن يُضيف قوله لدى الدخول: «واْهْل امْبَيت!»، أي: «يا أهل البيت!»، حتى يسمع الجواب ممَّن بالداخل: «واْهْلُهْ!»، أي «وأنت من أهل البيت، فتَفضَّلْ!». وإلَّا لا يدخل. تلك كانت العادة في قدوم الضيف ومخاطبة أهل البيت.

كنتُ في مراجعةٍ ذاتيَّةٍ لتلك الأصول السلوكيَّة التي تعلمناها صغارًا، حتى لا أقع في خطأ. على أنِّي كنتُ قد يئستُ من وجود وليد، قائلًا في نفسي: إمَّا أنه ليس هناك، أو أنه، كما يقولون بلهجتهم: «يتصينج»، أي يتصنَّع الصَّنَج، أي الصَّمَم.

وأنا أَهُمُّ بالانصراف، فجأةً شيءٌ ما تحرَّكَ وراء سِجْفٍ جانبيٍّ في فناء الدَّارة.. إذْ أَطَلَّت عليَّ طفلةٌ جميلةٌ، في وَجَل. ودون أن تنطق، سألتُ:

- أين أبوكِ؟

- سَرَحَ بالغنم.

- متى يمكن أن أجده هنا؟

- العشيّ.. مَن أقول له إذا سأل؟

- لا يهمّ.. سأعود إليه في العشيّ..

حوالَى الساعة الخامسة مساءً، عُدْتُ.. إذا بالرجل الذي شاهدتُه في صِغَري مسجونًا، هو هو، مع بعض التغيُّر، طبعًا. كان أميل إلى النحافة، وليس بنحيف، طوالًا أسمر، سُمْرةً خفيفة، وَسِيْم الملامح. أرنبة أنفه منسكبة كرأس عصفورٍ صغير. ذو شاربٍ دقيق، ولحيةٍ خفيفة حسنة، قد بدأ يغزوها قَـتِـيْـرُ شيب. بدا لي في الخمسينيَّات من العمر. كان يلبس الزيَّ التقليديَّ القديم في المنطقة، مِلْحَفَة (إزار)، «مزركشة» الجوانب، مُهدَّبة، مُثَـبَّتة على الخاصرة بسِبْـتَـة، تحمل مِنْقَلَةً، (أي سكِّينة صغيرة). وعلى نصف الجسم الأعلى «شَمِيْز»- كما يُسمُّونه- أي قميص. وكان رأسه بجمَّة شَعرٍ جعدة. كأنه أحد الرِّيفيِّين، أو البُداة، ممَّن كنتُ أراهم في صِباي يجلبون إلى الأسواق السَّمْن والعسل، أو الماشية. كان جالسًا يحلب بعض مَعْزَاته، فناءَ الدَّارة، وكأنَّه كان يُعلِّم ابنته كيفيَّة الحَلْب. الحقُّ أنني كنتُ متوجِّسًا منه

خيفةً.. فالمساء يقترب.. لكن ما طمأنني أنني لم أسمع عنه قَطُّ أنه يؤذي الناس.. كما أن مظهره لا يُنذر بذاك.. ولم أره كمجانين آخرين، وللمجانين هناك حكايات.. فما أن تَشيع عن شخصٍ سُمعةُ الجنون- لأسباب نفسيَّة، أو لظلمٍ اجتماعيٍّ، في الغالب- حتى يتسلَّط عليه الصِّغار بالجري خلفه، وبعض هؤلاء قد يؤذيه بترديد الكلام عنه، أو قذفه بالحجارة، وترتيب المقالب له، في غفلةٍ عن تربية الكبار. بل ربما شاركهم سفهاء الكِبار في التفكُّه بأولئك المساكين، عابثين لاهين. حتى لا يكاد يُعرف هنالك مَن عقله «نِصْف لَفَّة»- كما يُقال في بعض الجهات- إلَّا ويأخذون به حتى يفقد ذلك النِّصف كلَّه، ويدخل في عداد «الـمُعَبَّلَة»، أو المجانين. والمَـعْبُوْل، بحسب تعبيرهم المحلِّي: مَن بهِ «عَبْلَة وبناتها»، وهي جِنِّـيَـةٌ بهذا الاسم، ولا علاقة لها بمحبوبة عَنْتَرة بن شدَّاد، المَـعْبُوْل بعَبْلَتِه الخاصَّة! ومَن أصابته عَبْلَة

عُبِلَ، فصار مَعْبُولًا، به «عِبَال»، يجعله يتَعَيْبَل درجةً من العِبَال، قَلَّ أو كثر! أي جُنَّ، فصار يتصرَّف تصرُّف المجانين! وذلك كعلي عيضة، ذلك اليماني المسكين، الذي جاء يشتغل بالبيع والشراء، وكان سليمًا عقليًّا، ولكن كان لديه رُهاب فظيع من الثعابين، فما يكاد يَشعُر بحبلٍ أو خِرْقة، حتى تطير طوائرُهُ، ويفقد صوابه. فلمَّا عرفوا عنه ذلك، ما زالوا به في لهوهم، حتى طيَّروا البرج الباقي من عقله. وأسباب الجنون لديهم جاهزة: ففلان به «عِلَّة»، أي جِنِّـيَّة! وما مِن عِلَلٍ، في الحقيقة، سِوى من الإنس، من أمثال هؤلاء الأشقياء وأبنائهم!..

... قلتُ في نفسي، وأنا في تلك الخواطر أقلِّب الذكريات: لا يمكن، إذن، أن يكون وليد موسى من تلك الفئات من المجانين، وله تلك الطِّفلة الوديعة التي رأيتُ، والتي كانت تساعده، محضِرةً إليه الآنية من الداخل ليملأها

باللَّبن. طال استغراقه في هذه العمليَّة. وفي تلك الأثناء كنت أُقَدِّم رجلًا وأُؤَخِّر أخرى: أ أنصرف قبل أن يراني، أم أُكمل المهمَّة التي نذرتُ المُضيَّ فيها؟ لكن ماذا سأقول له وأنا لا أعرفه ولا يعرفني؟:

- لِـمَ جئتَ؟

- جئتُ أسألك: أ مجنون أنت أم صاحٍ؟!..

لا يليق هذا حتى مع مجنون!.. وإنِّي لفي دوَّامة هذا الموقف المتردِّد، إذ استيقظتُ- كمن كان في غفوة- على صوته يناديني:

- تفضَّل!

- عفوًا.. أنا...

- أخبرتْني جميلة...

- مَن جميلة؟

- هذه.. بنتي..!

- لا...

(وهو يحمل وعاء اللَّبن الأخير)

_ .. اشرب وادعُ لي..

- شكرًا لا أحبُّ اللَّبن هكذا..

(تَفَرَّس في ملامح وجهي مَلِيًّا.. عيناه غابتا أسئلةٍ عميقة)

- لستَ من هذه الدِّيْرة؟.. لكن لهجتك مِنَّا... اشرب يا رجَّال، ما عندي لك إلَّا لبن!..

بعد تردُّد شربتُ. فجأةً، وَضَعَ يده على نِصاب سِكِّينته واستخرجها.. جَفَّ ريقي.. أوشكتُ أن أُطْلِق ساقَيَّ للرِّيح، لولا أن الرَّجل أهوَى بالسِّكِّينة على قدمه اليُمنَى، لِـيَنْـتَـقِش، أي ليستخرج شوكةً من قَدَمِه. وحينما لَحَظَ ارتباكي، لمحتُ ابتسامةً لاحت على وجهه.

- ادخُل..

كان الرجل يبدو كريمًا.. مُنْزويًا على نفسه، نعم، لكنَّه ما أن وجدني أسعى للتعرُّف إليه، حتى انفتح بالحديث معي وكأنه يعرفني منذ سنين. وهو على إدراكٍ تامٍّ بما يدور في مخيّلة الناس حوله. بل لقد استشفَّ أسباب قدومي قبل أن أنبس ببنت شفة. وهذا ما سهَّل عليَّ مفاتحته في الموضوع منذ أوَّل وهلة. كان صوته جهوريًّا في طلاوة. والأهمّ من هذا أنَّني جعلتُ أشعُر أن وراء كلِّ كلمة يتفوَّه بها قِصَّة. كُلُّ كلمةٍ كبئرٍ عميقةِ القَعر، ملأَى ماءً، بعضه «عاينة»- أي ماء عَيْن- وبعضه «وَهَب»، أي ماء مطر، وبعضه «خَـمَج»، أي عَكِر. هكذا إحساسٌ مازَجني وأنا أستمع إليه، لأوَّل مرَّة.

سهرتُ ليلتي مع وليد، وهو يشرِّق بي في أحاديثه وأقاصيصه التي لا تنضب ويغرِّب. وقد تأكَّد لي فعلًا أنه ليس بإنسانٍ عاديٍّ، كما يخدع مظهره مَن يراه. وأن ما سمعته

يُنسب إليه من وَعيٍ معرفيٍّ وثقافةٍ عاليةٍ وإتقانٍ للإنجليزيَّة خاصَّة، ليس إلَّا بعضًا من كُلِّـيَّة ما ينطوي عليه من أسرار. إذ ما أن اطمأنَّ إلى أنَّني ما جئتُ إلَّا متعاطفًا معه، وكي أُصغي إلى شجونه وأخباره، حتى شَرَحَ إليَّ صدره بكُلِّ ما فيه، أو هكذا حسبت. سهرنا الليل كُلَّه فوق سطح دارته، إلَّا سويعات غلبنا فيها النوم قبل الفجر. دارته الصغيرة تلك التي كان يسكنها مع امرأته وابنته وظأنه ومَعْزِهِ وبعض الدَّجاج. لم تكن بالطبع ليلة واحدة كافية لأعلم خبره كُلَّه. وإنْ كنتُ قد شَكَكْتُ بالجملة في ما كان يُنسب إليه من هَوَسٍ أو جنون. أيقظَني لصلاة الفجر:

- قُمْ صَلّ.. سَهَّرَتْنا السوالف.. أنا كما ترى «راعي حلال».. والراعي لا ينام إلى هذه الحَزَّة.

(بعد الصلاة كنتُ أهمُّ بالانصراف، وأُضمِر استئذانه في زيارةٍ أخرى).

- باحث اجتماعي، حضرتك؟ (سألني)..

- باحث عن الحقيقة.

- ستتعب..، على كُلٍّ، بعد الإفطار واصل بحثك!

قَبِلتُ. أَحْضَرَ من خبز أُمِّ جميلة، وبعض السَّمن والعسل والبيض، مع الحليب والشاي.

- ما شاء الله.. ما كُلُّ هذا، يا أبا جميلة؟!..

- الحمد لله.. كُلُّها أشياء من الإنتاج المَحَلِّي لأبي جميلة وأُمِّ جميلة.. دِيْرَتنا مباركة لكن الناس اليوم كسالَى.. لا يليقون بجدودهم الذين شَيَّدوا هذه الجبال من لا شيء.. وعاشوا فيها مكتفين ذاتيًّا.. جِيْل اليوم وَجَدُوها «مُسْرَجَة».. ولا يعلمون أن الأوضاع

الاقتصاديَّة تتغيَّر كلَّ يوم، وهم نائمون.. في العسل.. (قالها وهو يتلمَّظ أعقاب العسل على شفتَيه، ثُمَّ يَتَمَطَّق مُسْتَلِذًّا). لو كان هناك استثمار لخيرات هذه الأرض، لما قَلَّت ثرواتها الإنتاجيَّة، نباتيَّةً وحيوانيَّةً، عن هولندا. إنها تُنتج هكذا لوحدها- دون ريٍّ، ولا دعم، ولا تخطيط استثماريّ- فكيف لو حظيت بمثل تلك الجهود التي تمنحها الأُمم الحيَّة لأوطانها؟!...

- مجنون يتحدَّث عن الأوضاع الاقتصاديَّة والاستثمار في البلد؟! (ساءلت نفسي).

بعد الإفطار نهض لسَوق أغنامه إلى المرعَى، ونهضتُ أنا لشأني، وفي صدري كلمةُ استئذان لزيارةٍ أخرى. وقد أعفاني هو من ذلك، حينما قال لي، مودِّعًا:

- لا تكن زيارتكَ كبيضة الديك!

وهكذا لم يَعُد باعثي على الإتيان إليه تَحَرِّي أسراره فحسب، بل والإفادة من معينٍ ماتعٍ من معارف الرجل وفكره. لا أدري كم مَرَّةً تردَّدتُ على دار وليد، وكنتُ لا أزور المنطقة في إجازة حتى ألتقي به في مكانٍ ما، أو يدعوني هو لزيارته. ومن الواضح أن الرجل- في اغترابه ذاك- قد وجد في حديثه معي مُتَنَفَّسًا، فصار لا يقلُّ عنِّي حِرصًا عليه. حتى توطَّدتْ علاقتي به، وصار لا يطمئن إلى أحدٍ من المحيطين به كما يطمئنُّ إِلَـيَّ، بل أوشكتُ أن أكون همزة وصلٍ بينه وبين الناس، ممَّا أزعم بأنه أحدث تحوُّلًا نِسْبيًّا في نظرتهم إليه وتقبُّلهم لمجالسته، وإنْ كان الأمر لا يخلو من انتكاسات بين حين وآخَر، خاصَّة حينما يمارس جرأته في قول ما يدلُّ على أنه «ما زال على ضَلاله القديم!»

في إحدى الصيفيَّات، وذات صباح، بعد أن سهرتُ لديه، كعادتي، كان قد أخرج أغنامه وهو يتأبـَّط ما بدا لي كتابًا أو كرَّاسًا، ظننتُه سيصطحبه معه ليقرأ شيئًا أو يكتب. ناولني إيَّاه.

- ما كنتُ أحسب يومًا أنَّني سأُطلع على هذا أحدًا سِوى ابنتي جميلة! فهي تُحِبُّ القراءة والقصص، وتقول لي: «أنا لمَّا أكبر سأصير مَلِك»!

- مَلِك؟

- ههههه... نعم، «مَلِك»!

أقول لها: «طيب، قولي: «مَلِكَة»!».. تقول: «لا، مَلِك يعني مَلِك»!

فكتبتُ بعض الذِّكريات الشَّخصيَّة، يمكن أن تستفيد منها مستقبلًا في تحقيق حُلمها!

- ما هذا، يا أبا جميلة؟ (وفتحتُ كرَّاسًا مخطوطًا بخطٍّ دقيقٍ أنيقٍ بقلمٍ رصاص).

- خُذه، لعلَّ فيه بعض إجابة عمَّا تبحث عنه. لستَ أنت فارغًا لسوالفي الطويلة، ولا أنا قادر على السهر. ستجد فيه بعض ما يُمْكنني أن أخبرك به. كتبتُه من أجل ابنتي فقط.. لكنها ما تزال صغيرة.. ومَن يدري إلى أين سيصير.. وما أراك إلَّا كابني.. اطَّلع عليه، وعُدْ لزيارتنا، وأَعِدْه معك..

- هل تمانع في إطلاع غيري على ما فيه؟

- في الوقت الراهن، نعم، ولكن إنْ كان غيرك هذا يبغي الحقيقة، فلا مانع.. وهل كتبتُه إلَّا ليُقرأ، على كلِّ حال؟!.. ليس فيه ما أتحفَّظ عليه، أو أخجل منه. أنا، كما تراني، قد طلَّقتُ الدنيا بما فيها ومَن

فيها. إنْ هو إلَّا سلاحي الأخير في معركة الحياة.

ويبدو أنه قد آن لي استعماله!

تركتُ الرجل في طريقه، ومضيت في طريقي. كنتُ أغالب نفسي في تأجيل القراءة إلى حين الوصول إلى بيتي. ولَّما وصلتُ إلى حيث يُمْكنني أن أقرأ، وقفتُ على مذكِّرات كتبها الرجل عن حياته، بأسلوبٍ استطراديٍّ سرديٍّ عجيب. تتضمَّن بعض ما كان قد حكاه لي في أحاديثه وبعض ما لم يَحْكِه. وها أنا ذا أقرأ بعض ما جاء فيها، أُضِيْـفُ هنا أو أوضح هناك؛ فممَّا وجدتُ في كُرَّاسه ما يحتاج أحيانًا إلى التعليق أو التفصيل أو الشرح، مستعينًا في ذلك بما عرفتُه من حكاياته شفهيًّا من خلال أحاديثي معه:

الفصل الثاني

حكمة مجنون :

«من أصبح وفي رأسه عقل،

فليحمد الله؛

فبعض الناس يبحث عن عقله فلا يجده!»

لم تكن مصادفةً أنْ حَمَل اسمين في صِغَره، اسمًا شعبيًّا وآخر يُؤذِن بتحوُّلٍ جديد. إذ سرعان ما نَقَضَتْ أُمُّه اسمه الأوّل باسمه الجديد. كيف لا، والاسم الجديد هو اسم ابن الشيخ. وما أدراك ما الشيخ، وما ينطق عنه، أو يُسمِّيه؟! هو مَن هو، حاكِم القبيلة، والحقّ القائم الدائم، وهو سلطان القبيلة الفعلي. ربما كان نموذج الشيخ هو نفسه من حَمَل في عصورٍ غابرة اسم «السُّلطان»، فأضيفت إليه بعض الأسماء

من الحِياض والآبار، فقالوا مثلًا: «حَيْفَة السُّلطان»، و«بئر السُّلطان». إنه، باختصار، نموذج العدل والعقل والوجاهة في الدنيا، وربما في الآخرة أيضًا، خلال العصور الغابرة! تلك صورته النمطيَّة، وإنْ كانت له في بعض الحالات صُوَر أخرى، نموذجًا للجَور والإقطاعيَّة. لا يستحقّ من رعاياه سوى القتل...

- القتل؟! (قاطع الفتى أباه).

- نعم، كسُلطان القَزَعَة، الذي قَتَلَه أحد آل كاملة بسبب ظُلمه...

- «كاملة».. رجل هو أم امرأة؟

- لعلَّه اسم امرأة.

- وينتسبون إلى امرأة؟!

- كانوا يتشرَّفون بالانتساب إلى النساء. وكثير من العشائر والقبائل في المنطقة حملتْ أسماء نساء.

- لكن الآن...

- «كلّ حَزَّة بلبوسها!».. الآن تغيَّرت النظرة، بل صار الناس يتصوَّرون وراء تلك الأسماء الموروثة هجانةً في الأصل، لم تكن في حسبان الأسلاف. فقد كانوا ينتخون بأَخَوَاتهم وأُمَّهاتهم، رمزًا للحِفاظ والصِّيانة من جهةٍ وإشارةً إلى الشَّرَف الذي لا تحتاج النساء إلى أوصياء من الرجال للالتزام به.

لم تكن إذن مصادفةً أنْ حَمَل اسمين حينما وُلِد؛ فذاك ما كان من شأن الأسماء وتحوُّلاتها، وما تحمله تحوُّلاتها من دِلالات. ولذلك فقد كان اسمه الجديد، فوق هذا وذاك- وعلاوة على كونه اسم ابن الشيخ- يحمل مرشِّحًا جماليًّا آخَر؛ إذ كان قادِمًا من خارج المألوف في أسماء المنطقة، ولكلّ خارجٍ فِتنة، ولكلّ وافدٍ سِحْر. حتى إنَّ أُمَّه قد رأت في ما

يرى النائم ذات ليلة أن طفلها هذا سيكون في مستقبل الأيَّام ذلك النموذج الأرضيّ السماويّ. أمَّا أبوه، فلم يُبْدِ احتفاءً بالمسألة التحوُّلية هذه. بل لقد كان أَمْيَل- يومها- لاسم ابنه الأوّل. وإنْ كان قد أظهر فيما بعد حماسةً لما كان يرمز إليه نقض الاسم من تحوُّلٍ، بما لهذا التحوُّل وما عليه.

- أجمل الأسماء موسى، فليكن اسمه موسى!
- بل أجمل الأسماء عبد الله وعبد الرحمن.. هكذا أخبر الرسول.
- تقصدين «خير الأسماء»...
- ما الفرق؟ لا خير في ما ليس بجميل ولا جمال في ما ليس بخير!
- يا سلام على الفلسفة! لا أحد في كلّ (ساق الغُراب) يسمِّي ابنه بمثل هذه الأسماء. نسمِّيه باسم جدِّه، يحيى.. أو ...

- ولِمَ لا نسمِّيه سالم باسم أبي أنا؟

- ابتدأنا الخلاف.. يعني حسب المثل: «أَعِرْني امْشَور وإلَّا أتيت عليه!».. سالم أو يحيى، المهم أن يحمل اسماً نعرفه!

- تدري.. لا أنا ولا أنت، ولا أبي ولا أبوك، نُسمِّيه: وليد.

- وَلَد نُسمِّيه وليد؟! ألا ترين أنهم يقولون: «المتخيِّر أعمى»؟!.. تريدين أن يكون اسمه أضحوكة الأولاد؟!

- لا يستطيعون! أنسيت ابن الشيخ؟ ياله من ولد! ما أتمنَّى أن يكون ابني إلّا مثل وليد!

- آخر زمن يُسمِّي الشيخ ابنه: «وليد»! لكن «من أطاع الناسْ، راح بغير راسْ!»، حتى لو كان الشيخ نفسه! لولا امرأته الشاميَّة ما سمَّى بهذا الاسم!

- يا رجَّال خَلّ عنك الكلام.. الدنيا تغيَّرت.. بَعدين أنت ما سمعت عن خالد بن الوليد؟

- وليد.. وليد.. (وفي سِرِّه كان شيطانٌ يهمس: «أَطِعْ المرأةَ ولا تستشرها!»)

كانت الأسماء في الجبال جبالًا. كلّ اسم يشكِّل جهة. يكفي أن يُذكَر حتى تنصرف الأذهان إليه مباشرة. قَبِلَ الأب اسم وليد على مَضَض، مع أنه لا يَمُتُّ للأسماء في شجرة العائلة بصِلة. بل لا يَمُتُّ لأيِّ شجرةٍ في الجبل بصِلة. لقد كان من الواضح أن أبا وليد- رغم تعنُّته في البداية- كان يستشعر وراء مشكلة الاسم انقضاء عهدٍ وولادة عهدٍ، وأن النسق الاجتماعي الذي عرفه تاريخ الأسماء في الجبال قد أخذ يتخلخل، وأخذت الدائرة تنداح من محيطها المحلِّي لتتداخل مع دوائر أخرى ذات أنساق

تتسع أو تضيق. فاستسلم مذعنًا لسُلطة العهد الوليد، الذي بدأ يشعر بأنه جارفٌ وأقوى منه.

ومع هذا الإذعان الظاهري فإنه لم يستسغ الاسم الجديد. كما لم يستسغ خير الأسماء، رغم تديُّنه الظاهر. وإنْ كان قد استساغ هذه الأخيرة بعد حين، حتى لقد جعل أسماء إخوة وليد كلَّها محلَّاة بأسماء الله الحسنى أو صفاته.

هكذا حكى الأب لوليد- فيما بعد- قِصَّة تسميته «التاريخيَّة»، وما كان إذ ذاك يَشعر به حيالها. لقد كان أبو وليد يُكنَّى بأبي يحيى. وكان ينتظر طيلة شبابه هذا «اليحيى» القادم. وقد دَرَج الناس هناك على أن يحمل الابن اسم جدِّه، الأدنى أو الأعلى. ليكون في النهاية، من قبيل: يحيى علي حسن علي حسن يحيى حسن علي يحيى علي حسن يحيى.. وهلمّ جرّا. ولكن هيهات! ذلك زمان مضى وانقضى. أمَّا البنات فلا تحفُّظ في تسميتهنّ كالأبناء. وإنْ كان خير الأسماء

إذ ذاك: خيرة، عائشة، مريم، صفيَّة، وفاطمة. في جيلٍ جديدٍ من الأسماء، جاء على أعقاب أسماء تقليديَّة أشهرها: غَيْثَة، مَطَرَة، زَرْعَة، وكاذيَة. وهي أسماء كانت تُشتقّ من البيئة الزراعيَّة، لا من الكتب ولا من التراث، ولا من أسماء الشاميِّين ومَن صاهرهم.

- ولماذا كانوا يكرِّرون أسماء آبائهم في أبنائهم؟ (سأل وليد أباه).
- تيمُّنًا، ليكون مثل جدِّه!
- ولو كان جدُّه غير ميمون؟!
- ماذا تعني يا... وليد؟!
- لا.. أعني ليس كل جَدٍّ يفتخر المرء به، فضلًا عن أن يُحبّ التسمِّي باسمه! وحتى لو كان يفتخر به، لماذا التكرار المملّ للأسماء؟ الاسم ما جُعِل إلَّا ليميِّز زيدًا من عبيد!

- فلسفة.. أيامنا لم نكن نتفلسف مثلكم، ولم يكن أحد يجرؤ أصلًا على التفلسف، وخصوصًا في مثل هذه المسائل. (قالها واعتدل في جلسته، تعلو نبرةَ صوته حِدَّةُ احتجاج).

هنالك أمرٌ آخر..

- اسلم..

- وهو الخِتان.. أنتم ما عرفتم الخِتان!

- نسيتَ أنني قد اختتنتُ، يا أبي؟!

- أقصد خِتان الأوَّلين.. فقد كان موقف «الدِّرْم»...

- «الدِّرْم»؟ أي شيء هو «الدِّرْم»؟

- حتى «الدِّرْم» لم يعد جيلك يعرف معناه! هو بلهجتنا: الفتى البالغ الذي صار في سِنّ الخِتان. وللخِتان طقوس ترتبط بالدُّخول إلى عالم الرُّجولة.

- نعم.. ماذا عنه؟

- كان الخِتَان آية الثبات ورباطة الجأش. يحضر الناس محفل الخِتَان من كل مكان، وخاصَّة الأخوال ومن له بالدِّرْم علاقة «سِماية»...

- «سِماية»؟

- يعني مَن حَمَلَ اسم الدِّرْم أو حَمَلَ الدِّرْمُ اسمه. وهذا يؤكِّد علاقة الخِتان بالأسماء والأنساب. ويحضر كذلك أصحاب الإعانات، وهم الذين يحملون إلى الدِّرْم إعاناتهم العينيَّة أو الماليَّة من أقاربه ومعارفه، ليردَّ إليهم بدَوره مثل إعاناتهم في مناسباتهم المقبلة. وإنْ كان الدِّرْم لا يفكّر في مثل ذلك اليوم العصيب في شيءٍ إلّا في مصيره ومصير سمعته. فالخِتان معركة فاصلة بين الرُّجولة وعدمها، يظلّ يُهيَّأ لها الذَّكَر (أعني الرَّجُل) نفسيًّا منذ أن يُولد. في ذلك اليوم تكون قد أُعِدَّت ذبائح الغنم ونحائر البقر. كما

أُزلِفت «الزِّلاف»- جمع «زَلَفَة»، وهي صحون خشبيَّة كبيرة- مُلئتْ بـ«المَشَارِع»- جمع: مُشْرَع، وهو دقيق البُرِّ المعمول كالثَّريد مغمورًا بالسَّمن. إلى جانب لطائف الخبز مع أفضل أنواع العسل. ثُمَّ تُقام العرضات المختلفة وتُلقَى القصائد. وتستعرض بالدِّرْم جماعة من الفتيان، تركض به منطلقةً من صفِّ الزامل حتى تُصبح على قرابة ثلاثين مترًا منه. حيث تقف بالدِّرْم مستقبلةً صَفَّ الزامل، مطلقةً وابلًا من الأعيرة الناريَّة من فوق رأسه وجانبَيه. ثُمَّ تعود به إلى الصفِّ، لتستلمه طائفة أخرى. فتَتَدَرَّم به كما فعلتْ الأولى.. وهكذا دواليك. وهو في تلك الأثناء يُلوِّح عاليًا بجَنْبِيَته يَهزُّها بيمينه، وقد يكون بيده اليسرى لِـمْط أو غيره من السِّلاح، أو قد

يكتفي برفع قَبْضَته. حتى إذا حَمِيَ الوطيس، وياله، يا وليد، من وطيس...

- معقول كلّ هذا يا أبي!.. هذه معركة!

- هي كذلك فعلًا أو أشدّ! هي معركة الدِّرْم وعائلته وقبيلته لإثبات الأهليَّة الرجوليَّة، فالقَبَليَّة.. وهو يومٌ تاريخيٌّ يُحدِّد سُمعة الجميع!

- واو! بالتأكيد أن الخَـتِيْن بعد هذا الإرهاق، والصخب، والرَّصاص الملعلع من فوق رأسه وعند أذنيه، مع الشَّحن النفسي المسبق، سيُصاب بالتبلُّد وفقدان الحسّ!

- «واو؟«.. يا حليلك! من أين لك هذا التعبير؟ يا بُنَيَّ حَلِّل كما تشاء.. لكن صدِّقني أنك «ما دريتَ كم خَبَزوا!».. فأنت لا تعلم أن الأمر ما يزال أشنع ممَّا تتصوَّر!

- بقيَّة التفاصيل معروفة...!

- اِحمد ربَّك أنك لم تُدرك لا التفاصيل ولا بقيَّة التفاصيل، المعروفة أو غير المعروفة!.. صحيح «ما درى الشبعان ماذا في بطن الجيعان!»..

- كيف؟

- يقف الخَـتِّيْن وقد استدار الناسُ حوله دائرةً واسعة، وهو يُلْقِي في حماسٍ ما حَفِظَه من نَسَبِه من جهة آبائه ثُمَّ أخواله. طبعًا «الخال والد، والعمّ كايد»، كما يقول المثل. (وكان أبو وليد لا يستطيع الحديث دون ضرب الأمثال، ولكلّ مقامٍ مَثَل، يختزل به إبلاغ ما في ذهنه من دِلالات، شأن الأوَّلين).. ثُمَّ يدعو الختَّان:

- ... اختنْ يا ختَّان.. لو قطعت السِّنّ واللسان.. والله ما أقول لو كان! (يصيح به الدِّرْمُ.. يتقدَّم الختَّان نحوه)..

- «يمشي الـهُـوَيْنَى كما يمشي الوَجِيْ الوَحِلُ»؟! (علَّق وليد).

- لم أدرِ ما قلتَ.. لكن تقريبًا!

يتناول الختَّانُ أُجرة العمليَّة من فوق رأس الدِّرْم، حيث يكون قد وضعها. لكلّ ختَّان سِعر ولكلّ خِتان سِعر.

- كيف؟

- كيف! «حسب تسعيرة البلديَّة»!.. (أبو وليد ساخرًا).. اعلم يا بُنَي أن أُجرة الخَتَّان كانت قرشًا أو قرشين.. ريالًا أو ريالَين، أكثر أو أقلّ، وذلك

حسب الخَتَّان الذي يريده الدِّرْم، أو بالأحرى يريده أهله.

- كيف؟

- هناك من يريد المبالغة وإثبات التفوُّق على الأنداد. وقد يُترَك أخيرًا للدِّرْم تحديد حدود خِتانه المطلوب، وذلك بغَرْزِ أوتادِ القَصَب بين جلد بطنه وفخذيه، أو حتى تحديدًا بالسكين. ثُمَّ تبدأ العمليَّة البطيئة البطيئة. والناس في هرج ومرج من الأناشيد الحماسيَّة وإطلاق الأعيرة الناريَّة. وكلَّما حزَّ الخَتَّان سَيْرًا رمَى به، ثُمَّ أخذ يتلفَّت يَمْنةً ويَسْرة، يستعرض ملامحَ الدِّرْم تارةً والحضور تارة. كأنما هو يمتحن صَبْرَ الدِّرْم في الوقت الذي يستأذنه في المزيد. وإلى هذا يستشرف وقع الأثر على المتفرِّجين. ثُمَّ يُعاود سنَّ السِّكين.

- اعطِ فُلانًا صائبة؛ لأنه قد استهزأَ بي!.. (يقول الدِّرْم، فيحتذُّ الخَتَّان سَيْرًا).
- هذه صائبة فلان.. (ويرمي سَيْرًا في الهواء).
- اعطِ فُلانة صائبة؛ لأنها كانت تَسخر منِّي!
- هذه صائبة فُلانة..

وهكذا. والناس يراقبون كلَّ حركةٍ تبدر من الدِّرْم، حركةَ عينٍ أو رَمْشَةَ جفنٍ أو امتقاعَ وجه. فإنْ ثَبَت وصَبَر، كان الشجاع لديهم، شَرَّف أهله. فعادوا بأهازيج الفرح. وإنْ لا، فلا.

وقد كان طقس الخِتان مناسبةً شِعريَّةً حافلة، وميدانًا مشهودًا يُمتحن فيه الشعراء وتُكتشف المواهب الجديدة، وتُطرق فيه مختلف الأغراض الشِّعريَّة، من مديح، وحماسة، ومفاخرة، ومهاجاة، ومحاورات شِعريَّة، فيلعب الشِّعر دورًا رئيسًا في

تخليد ذلك اليوم. وقاك الله، يا بُنَيَّ، شَرَّ ذلك اليوم! إنْ «تنومس» الدِّرْم، أي صَبَرَ على آلامه، صار عضوًا كامل العضويَّة في القبيلة، بموقف ذلك اليوم. وإنْ كانت الأخرى، فحدِّث ولا حرج عن سُبَّة الدهر التي تلحق به وبذويه.

- ألا تظن، يا أبتِ، أن هذه الحكايات الشعبيَّة تُبالغ جِدًّا في وصف هذه الصورة.. تمامًا كما كانوا يُبالغون في طقس الخِتان نفسه!.. لو تصوَّرنا هذا الصَّبْرَ الخرافيَّ، فكيف يُعقل أن يعيش الخَـتِيْن بعد هذه المجزرة، مع انعدام الأدوية ووسائل العلاج!
- لتظنّ ما شئت.. لكنَّهم يقولون إن الخَـتِيْن كان يقضي سنةً أو أكثر طريح الفراش..
- الحمد لله على نعمة العقل والإسلام!..
- الحمد لله!

- أَفْهَم من هذا أنك لا تشعر بالحنين إلى مثل تلك الأيام الجميلة، وتلك الاحتفاليَّات الصاخبة، و...؟

- وتلك المجازر الدمويَّة! .. أعوذ بالله!.. «إذا عدت لك يا (خَبْت البقر) فسمِّني: (ثور)!»...

- لكن بصراحة، قُلْ لي، يا أبي.. ما أخبارك أنت.. هل اختتنتَ على تلك الطريقة؟ وهل..

- وما شُغلك أنت؟ (وهو يضحك).. كان لشيخ شملنا فضل في منع الناس من خِتان التجليد.. ثُمَّ تقلَّصت العمليَّة شيئًا فشيئًا.. وفي العهد الحديث فُرضت العقوبات في هذا الأمر، وجُعلت لجان لمراقبة الالتزام بخِتان السُّنَّة، أو ما سمّاه الناس إذ ذاك: خِتان «امْسِقْمِيَة»، تحقيرًا لشأنه..

- يعني هناك من ظلَّ يُكلِّف نفسه مشقَّة الخِتان القديم؟

- كثير.. وهناك من خَتَن نفسه بنفسه ليستوفي ما لم يَعُد مسموحًا به في خِتان «امسِقْمِيَة»!.. ومن هؤلاء عمِّي جُبران..

- لكن الصَّبْر، يا أبي، ليس سِوى وجهٍ واحدٍ من أوجه الشجاعة. يعني قد لا يكون الصبور في مثل موقف الخِتان شجاعًا في مواقف أخرى! فعادات المجتمع بهذا قد حَصَرَت قيمة الشجاعة في الصَّبْر على الألم في لحظة معيَّنة...

- لا يا شيخ؟!..

- نعم، يا أبي.. ومن الثابت علميًّا أن الناس يتفاوتون في درجة الإحساس بالألم، كما يتفاوتون في جوانب

الإدراك والحسِّ الأخرى. وقد يكون شديدُ الصَّبْر ضعيفَ الحسِّ الجِلدي أصلًا...

- يتفاوتون؟! على كلِّ حالٍ عندهم حكاية تدعم ما تقول..

- وهي؟..

- وهي- سلَّمك الله- أنه يُحكَى أن أخَوين، أحدهما صَبَرَ في الخِتان، والآخر.. يعني.. «كانت عليه بعض الملحوظات!» وفي ذات يوم كانا في مواجهةٍ حربيَّةٍ.. فإذا بالصبور في الخِتان منهما يولِّي دُبره هاربًا، في حين ثَبَتَ أخوه مناديًا أخاه: .. «يا فلان، ترى الصَّبْر الآن، ما هو في الخِتان!».

- فكرة الخِتان، يا أبي، ليست لاختبار الصَّبْر.

- صحيح، هي سُنَّة.

- نعم، سُنَّة منذ إبراهيم، عليه السلام، وقد قرأتُ حكايةً عنها...

- أي حكاية؟

- حكاية بداية الخِتان، وأن إبراهيم اخْتَتَنَ وعمره ٩٩ سنة!

- الله، دِرْم عمره ٩٩؟! كيف؟

- نعم، دِرْم عمره ٩٩! هذا ما تقوله الحكاية، يا محفوظ الرُّوح والسلامة، كما وجدتها في «سِفر التكوين» من كتاب أهل الكتاب، «العهد القديم»: أن الله خاطب إبراهيم فقال: «يُختَن منكم كلّ ذَكَر، فتُختَنون في لحم غُرْلَتكم، فيكون علامةَ عهدٍ بيني وبينكم. ابن ثمانية أيَّام يُختَن منكم، كلّ ذَكَر من أجيالكم. وليد البيت، والمبتاع بفضَّة، من كلّ ابن

غريبٍ ليس من نسلكَ...»، أرأيت كيف أن اسم وليد معترف به من زماااان، يا أبي؟!

- هذه صفة لا اسم، موسى هو الاسم.. أكمل يا ولد، ودَعْ عنك هذا!

- قال: «يُختَن خَتْنًا وليدُ بيتكَ، والمبتاع بفضَّتك. فيكون عهدي في لحمكم عهدًا أبديًّا. وأمَّا الذَّكَر الأغلف الذي لا يُختَن في لحم غُرْلَته، فتُقطَع تلك النفس من شعبها. إنه قد نَكَث عهدي.»

- آمنَّا بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، وبالقَدَر خيره وشَرِّه! أين حكاية التسع والتسعين؟

- يشير هذا الإصحاح السادس عشر إلى أن إبراهيم «كان ابن تسعٍ وتسعين سنة، حين خُتِن في لحم غُرْلَته. وكان إسماعيلُ ابنُه ابنَ ثلاث عشرة سنة حين خُتِن في لحم غُرْلَته. في ذلك اليوم عينه خُتِن

إبراهيمُ وإسماعيلُ ابنُه، وكلُّ رجال بيته، وِلدانَ البيت، والمبتاعين بالفضَّة من ابن الغريب، خُتِنوا معه.»

- إي واااااه، يعني جَرْدَعُوا لهم كلّهم، شِيبًا وشُبَّانًا!.. كان يومًا شاهرًا جدًّا، إذن، ذلك اليوم! (عقَّب الأب).

- ماذا تعني؟

- أَيْ أنه يوم مشهود.. هكذا نقول عن مثل ذلك اليوم. العهد القديم الذي تتحدَّث عنه حكايات يهوديَّة، لا نؤمن بها.

- كيف؟

- سوالف في سوالف، يعني. وكَوْن الله يتَّخذ علامةَ عهدٍ بينه وبين آل إبراهيم من «غُرَلِـهم»، مهزلة، وكلام لا يليق بأيّ أحد، فكيف بإلـٰه؟!

- الله أكبر بكثير من هذه السوالف البشريَّة الصبيانيَّة التافهة!

- عليك نُور! ثُمَّ كيف يخلقها، ثُمَّ يقول هيَّا اقطعوها؟!

- بالفعل، هي عادة قديمة جدًّا، في شعوب وأجناس مختلفة، ولأسباب صحيَّة، كما يبدو. وهناك من يقول إنه قد ثبتت منافع صحيَّة للخِتان، وأن له أهميَّة في الحماية من بعض الأمراض الجنسيَّة، ومنها الإيدز.

- ما علينا.. لكن ما ذكرتُه أنا، يا موسى، كان عهدًا من نوعٍ آخر، وكان موقِفًا اجتماعيًّا، يتطلَّب من الخَتِيْن أن يَسْرُد نَسَبَه، في ذلك اليوم العصيب. أتريده أن يقف أمام المَلَأ لينتدب (ينتسب): «أنا وليد...»؟!

- تُعيِّرني باسمي، يا أبي؟!
- أَمْزَحُ، يا ولد!... كان لا بُدَّ للخَـتِيْن أن يُلْقِي نَسَبَه، ونَسَبَ أخواله، وربما أخوال الذين خلَّفوه أيضًا، في ثِقَة تامَّة، وإلّا صار وأهله- وربما قبيلته كلّها- علكةً في أفواه الناس لا تُنسَى. وتشابُه الأسماء في شجرة العائلة، الذي سألتَني عنه، يبدو هنا عاملًا يُسهِّل على الخَـتِيْن حفظها.
- هذا هو السبب؟
- أقول: ربما يكون من الأسباب.

لم يكن الأب يستسيغ اسم ابنه البِكْر وليد، وإنما يستعمله حين يريد توبيخه. ولذا ظلَّ يدعوه: (موسى)، فيما الأُمّ تدعوه: (وليد). حتى لقد اشتهر بين أترابه بـ(وليد موسى).

وكنتُ أظن «موسى» اسم أبيه، حتى عرفتُ من خلال سيرة حياته تلك التي كتبها عن نفسه أن الاسمين له نفسه: الاسم الذي سمَّته به أُمُّه والاسم الذي سمَّاه به أبوه. ويبدو أن كلّ واحدٍ منهما كان يدعوه بالاسم الذي يُحِبّ؛ فسمَّاه الناس بهما معًا.

الفصل الثالث

في تلك الأيام كانت الجبال سماءً، والسماء جبالًا.. جبالًا ترتفع نحو ثمانية آلاف قدمٍ عن سطح البحر. كان كلّ شيء يبدو جَبَلًا، حتى ندائف السحاب في السماء.

وكان وليد قد وعَى هذه العلاقة السماويّة الأرضيّة مبكِّرًا، فما كان يحميه من السماء سوى ظَهر أُمِّه، في تلك الليالي الماطرة. لذلك حَكَتْ له أُمُّه أنه لم يكن يبكي حين تهطل السماء، على الرغم من أن سقف «الدّارة» التي تُظِلُّه لم تكن تمنع تلك العلاقة الحميمة بين الأرض والسماء في تلك الليالي. لم يكن يبكي كي لا يَشُقّ على أُمِّه فتُلقي بنفسها عليه لتحميه من قطرات الماء المصحوبة بقِطَعٍ من طِين السقف المتهالك.

كانت السُّحُب كريمة في تلك السنين. ولولا كرمها لما تمكَّن أبو وليد من استثمار قِطعة البلد الصخريّة التي اشتراها. والبلد هناك لا تعني سوى بضعة حِياض، أو «أرياد»، من مدرَّجات جبليَّة، كانوا يسمُّونها بَلَدًا، صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ. وكانت السيول قد جرفت البلد حتى ظَهَر «الحَصْر»، أي الصَّخر، من تحتها. وكم ذَكَر وليد أيّام كان يغسل ثيابه مع أخيه الأكبر، من امرأة أبيه الأخرى، هنالك على الحَصْر الذي كانت تقع من فوقه بَلَدُ أبي وليد/ موسى. كان «غَيْل» الماء يتدفَّق من الصخور من أعالي الجبل، من حيث هبطتْ «السَّحْيَة»- أي الصخرة التي انحدرتْ فسَحَتْ الثرَى عن وجْهِ الأَرض- والتي جَرَفَت تمامًا ما كان تحتها إلى أسفل الوادي. الكَرَم كان هكذا جارفًا في تلك السنين. وما زال يذكر تلك السنة المأساويّة التي كَثُر فيها «الخير» فكثرت حالات الانهيارات الصخريّة أو «السِّحَاء»،

فجرفت بعضَ بيوت الجبال بساكنيها. كان يحكي لهم الأب مشاهداته أو ما سمعه حول تلك المآسي؛ إذ كان من ضمن اللجان المشكَّلة لتقصّي الأضرار الناجمة عن الأمطار.

يشاهد ربُّ الأسرة المنكوبة- وكان قد اضطُرَّ للاستكنان من المطر في فناء البيت المجاور لبيته- بدايات السَّحْيَة وهي تنحدر من أعالي الجبل إلى بيته، «فيُغِيْر»- بحسب لهجتهم، أي يُسرع كأنه في غارة- لإخراج امرأته وأولاده من بيته، لكن السَّحْيَة كانت أسرع منه. تأتي على البيت بمن فيه أمام عينيه. يشاهد ربُّ الأسرة بيته وأهل بيته ينجرفون إلى أسافل الوديان، فيتمنَّى أن لو تقدَّمت خطواته قليلًا ليصحبهم إلى حيث صاروا. تمزَّقوا أشلاء تحت الصخور والوحول. حاول الناس من الغَدِ جمع بعض الأشلاء.. قطعة من جلد.. فروة من رأس طفلة.. عظام مهشَّمة مختلطة بالطِّين واللحم والوحل. شعور وعظام هنا

وهناك.. هناك وهنا.. على امتداد المنحدرات الشاهقة والوديان.. جمَّعوها طيلة النهار ودفنوها طيلة المساء. أمّا الأب المكلوم فقد اختفى تمامًا عن الأنظار، وقيل إنه جُنّ، وحقّ له الجنون!

مِن يومها ظلّ وليد ينظر إلى الصخور التي في المنطقة العُليا من الجبل، فوق بيته، بتوجُّسٍ وترقُّبٍ وهلع، لا يعدله إلا شعوره وهو ينظر إلى الهاوية السحيقة التي تقع تحت البيت مباشرة. وظلّ لسنين من عمره ينتظر برعبٍ نصيبه من ذلك الكَرَم الجارف كلَّما نزل السماءُ، أو حتى كلَّما «آدت» الأماسي بالسحاب مرعِدةً مبرِقةً مؤذِنةً بنزول الغيث.

على غيل الماء الصخري كان يغسل ثيابه مع أخيه الأكبر صباح كل جُمعة، قبل أن تستحيل تلك الصخور إلى مزارع غنَّاء بالموز والبُن والليمون والفركس والسفرجل. فقد بناها أبو وليد من جديد بناءً خاصًّا، كما تُبنَى البيوت،

وبالغ في تحصينها من الانجرافات بتلك المادة العجيبة، التي نَجَمَت في تلك الأيام، وهي: الإسمنت، الذي كانوا يسمّونه في تلك الأيام «امْسِبِنْت». حتى لقد بلغ من اعتزازهم بالأنساب أن ذَكَروا لهذا الوافد الغريب نَسَبًا، فسمّاه بعضهم- إنْ دعابةً أو جِدًّا-: «سبِنْت بن...»، لكنه لم يعرف له أبًا؛ يبدو لأنه لم يعرف أصلًا: أ هو ابن أم بنت؟!

والإسمنت مخترَع كان أبو وليد من أوائل مستخدميه في تلك المنطقة الجبليّة. حيث لم يكن الأهالي «يمرِّجون» بيوتهم الحجريّة إلا بالطين المخلوط بروث البقر، أو «الخَسَع»، كما يسمّونه. وللخَسَع فوائد أخرى لديهم، منها أنهم كانوا يجفِّفونه حتى يصبح ما يسمُّونه «قَفَعًا»، ثُمَّ يُحرقونه في البيوت لطرد الروائح الكريهة والبعوض وبعض الحشرات الأخرى. وإذا فهمنا فوائد الخَسَع هذه الأخيرة ففوائده الأولى تدلّ على مقدار التَّرَف الذي كانوا قد بلغوه!

كما كانوا يستخدمون بخور القَفَع للحُكار، وللغرض نفسه تقريبًا. وإنْ كان منهم من يستبدل به حرق أنواع من الأخشاب. و«الحُكار»: جمع حَكَرَة، آنية يصنعونها من ثِمار القرع الكبيرة لمخض اللبن فيها وحفظه.

استخدم أبو وليد «السبنت بن» لتحصين بلده أوّلًا، ثُمَّ لعمل خزّان ماء كبير في الجانب الغربي من بيته ثانيًا، واستخدمه لتحصين بيته ثالثًا، فضلًا عن البيوت الأخرى التي ابتناها في أماكن متفرقة من بَلَدِه. وهكذا استطاع استثمار البلد الصخرية التي اشتراها، ليتمكّن من حماية وليد وأُمّه من كرم السحاب الجارف، كيلا يحلّ بهم مثلما حلّ بغيرهم.

لقد كانت البلد تُدِرّ عليهم ما يكاد يكفيهم، من الدُّخن، والذُّرَة، والبُن، والموز، وبعض الفواكه الأخرى المتنوّعة. على ضرورة الاقتصاد الشديد والترشيد الصارم،

فهي فواكه موسميّة، تعتمد على الأمطار وحدها لا على الريّ. وهل هناك من الماء ما يكفي لشُرب الإنسان نفسه؟! فعلى الرغم من كرم السماء حين تجود، فإنه كرم يذهب إلى الأودية، فقُدرة الناس على خَزْن الماء والاحتفاظ به محدودة جدًّا. بل ما كانوا يُعنون بزراعة الفواكه والخَضْراوات، بقدر عنايتهم بزراعة الحبوب. فكان كثير منها ينبت دون بَذْر ولا غرس، ناهيك عن العناية بأشجاره. كما كان كثيرٌ من الفاكهة والخَضْراوات مهمَلًا، لا يعرف الناسُ أنه يُؤكل أصلًا، وإنما هو من مأكول الطير والحيوان. غير أن ذلك الترشيد الصارم لتناول الفاكهة كان يكسره وليد في الموز خاصّة. فالموز كان الفاكهة الأوفر والأشهر وحلوى الأطفال النادرة. يقتطع أبو وليد «قِنْوَ» الموز الكبير قبل أن «يَـنِـيْع»- أي ينضج- فيخبّئه في مكان يُقَدِّر أنه آمن في إحدى زوايا المنزل. فما يكون من وليد إلا أن يتحيَّن الفُرَص

لغزو القِنْو في مخبئه، فكلما وَجَدَ حَبَّةً قد ناعت، أو أوشكت، ثَقَبَ في طَرَفِها ثُقبًا صغيرًا، ثُمَّ اعتصر ما في الموزة، يتمزَّزه من ذلك الثقب حتى ينتهي، ثُمَّ نَفَخ في قشرة الموزة الفارغة، فتعود ملأى بالهواء، وكأن شيئًا لم يكن.. وبراءة الأطفال في عينيه! وهكذا يعيش أيامًا على غزو الموز.. وأبو وليد يعيش على عزو الأمر إلى الفئران في كل مرة يفتقد لُبَّ موزة!

حياة هانئة رغم الفاقة. يأكلون مما يزرعون ويلبسون مما يصنعون، أو أحيانًا مما يشترون من سوق الاثنين أو الخميس أو الثلاثاء، بأزهد الأثمان. ما كان يعني الرجل في ملبسه أكثر من إزارٍ من بُرود اليَمَن يستر ما بين السُّرَّة إلى منتصف الساق. يتمنطق فوقه بسِبْتَةٍ جلدية، يتخذها حزامًا، وقد ثبتت فيها مِنْقَلَتَه (سِكِّينته أو خَنجره)، التي تكاد تمثل عضوًا من جسده، لا تفارقه طيلة وقته وعمره. إنها سلاحه الشخصي وأداته اليومية التي لا غِنى له عنها.

نعم، كانت خنجر الجبالي تؤرِّق التهامي؛ إذ يظنها علامة عدوانية، يمكن أن تُستخدم في أيّ لحظةٍ ولأيّ سبب. قد يكون التهامي مُحِقًّا، أمّا الجبالي فكان يجدها لازمةً من لوازم بيئته، يحتاجها في الدفاع عن نفسه، أكثر من أيّ شيء آخر. هي له ضدّ الحيوان والنبات وغوائل الطريق، من شوكٍ أو زواحف. أمّا سلاح التَّرَف لديهم، الذي يعدّونه للزينة أو للمواجهات الفعلية، فكان (الجَنْبِيَة). خنجر المناسبات والمقابلات الأطول والأعرض والأجمل. يحلَّى بنجوم الفِضَّة. ذو قرنٍ، يُمال إلى جَنب لابسه الأيمن، لسهولة الانتضاء. ذلك سلاحهم الأبيض، ولهم أسلحتهم السوداء. لهم أسلحتهم الناريّة، التي يستعملونها في إعلان أفراحهم وحروبهم. وكثيرًا ما كانوا يُجْرُون عليها في عشيّات الأيام- ولاسيما في الأعياد- مبارياتهم في الرماية. «يتنصَّعون»، كما يقولون. أي ينصبون على مسافة بعيدة «نَصَعًا»، وهو هدف

من حجر المَرْوِ الناصع البياض، ولعل هذا سبب تسميته «نَصَعًا»، يتنافسون في إصابته بالرصاص.

وإن كان الرجل مقتدرًا لَبِسَ فوق الإزار الأكوات والشالات اليمانية المشجّرة. أمّا إن كان أكثر من ذاك، أو كان اليوم يوم عيد أو مناسبة مهمّة، فقد يضيف فوق لباسه رداءً طويلًا ملوَّنًا، يتوشَّحه، يسمّونه: «لِـحافًا».

وعطورهم «العَرَق»، من النباتات العطريَّة، كالريحان، والحَبَق، والكاذي، والبعيثران، والخُزام، والفَنْكَة. يزيّنون بها رؤوسهم، رجالًا ونساءً. ويُعْنَون بزراعة أشجارها ونباتاتها وجلبها إلى الأسواق.

أمّا المرأة، فلم يكن إذ ذاك وجهُها وكفّاها عورة! وإن كانا قد صارا كذلك في وقتٍ لاحق. حَسْبُها إزارٌ ملوَّنٌ يصل إلى القدمين، وصِدْرَةٌ من القطيفة السوداء، مُزَرْكَشَةُ الأطراف، ذات كمَّين واسعين. وفوق رأسها تضع مِعْصَبَتَها

وقناعًا ذا أهداب أماميَّة ملوَّنة، يسمُّونه (مِـحَنَّة)، بتشديد النون.

الله، ما كان أطيب روائح النساء في كل بيتٍ وزِقاق! لقد كُنَّ يُعنين بشعورهن بصفة خاصَّة. فبعد أن تقوم المرأة بتنظيف شعرها وتطييبه، تجعل منه ما يشبه نهدين في مؤخِّرة رأسها، تحشوهما بأصناف الأطياب شديدة العَبَق. وهي عمليّة معقَّدة، يسمُّونها «الخَـرُوْش»، ولا بدّ أن تتم بمساعدة امرأة خبيرة بالخَـرُوْش والتَّخريش. أمّا حُليها، فحكاية أخرى! تبدأ بالمِسْكَة الفِضِّيَّة في معصمها، فالوَضْح الفِضِّي في زندها. ثُمَّ «اللَّاطَّة»، أو «المِعْنَقَة»، في عُنقها وفوق صدرها. وكانت هذه الأخيرة لا تُفارِق المرأةَ طيلةَ حياتها، وربما دُفِنَت بها بعد موتها. وتتكوَّن من عُقودٍ من الخَـرَزِ البِيض ذات الحوافّ السُّود، وواسطة كل عِقد ريال فرنسيّ، أو «فرانسيّ». وتَتَتالَى اللَّواطُّ في الطول من محيط العُنق نحو

متَّسَع الصدر، ومن ثَمَّ يقلّ عدد المَعانق ويكثر بحسب سِنِّ المرأة، أو غِناها، وبحسب ما إذا كانت حليتها بيتيَّةً أو لمناسبةٍ ما. وفي المناسبات قد تلبس فوق مَعانقها لَـبَّةً، وفي أُذنيها أقراطًا فِضِّيَّةً كبيرة، يسمُّونها «أعلاج»، واحدها «عِلْج». وهكذا كان يعرف المرء قُدوم امرأةٍ بجَرْس حليها، كما يعرفه برائحة خَرُوْشِها وعَرْف «عَرَقها»، أي ما تضعه من نباتات عطريّة بين شَعرها وثنايا ثيابها.

يا لحواسِّ وليد وما كانت تأنس به لحضور امرأةٍ أو مرورها، إذ تُعلن عنه الروائح والحليّ! لقد كان حضورًا دافئًا فاتنًا، لونًا وصوتًا ورائحةً، يتفتَّح ذهن الطفل على إدراك حضور الأنوثة من خلاله.

الفصل الرابع

كان وليد موسى قد بلغ مبلغ الفتوّة، وانتفاض جوع الذكورة للأنوثة، حينما حكى له أبوه حكايةً أيقظت فيه ذلك كله، كأعنف ما يكون، في انخطافٍ أُسطوريٍّ، بدا متوارثًا جيلاً عن جيل. تداعت أجواء الرومانسية في خياله حين كان يحكي له أبو وليد عن النساء وحليهنّ، وعن الخَـرُوش، فقال:

- أمّا الخَــرُوْش وراوئح النساء فحكاية أيّ حكاية!

- كيف؟ (سأل وليد).

- ما تعرف أُسطورة امْحَمْ عقَيْصاء؟

- سمعتُ عنها!

- أُسطورة منشؤها الخَــرُوْش والروائح النسويّة، التي أراك قد فُتِنْتَ بها فُتونًا. أعاذك الله من

شرورها! (ثُمَّ شَرَعَ يقصّ عليه هذه الأُسطورة الشعبيّة):

- يقولون، والله والي كلّ عِلْم، إن امْحَمْ عُقَيْشْتَاء- وهو محمّد عُقَيْصَاء، لكنهم ينطقونه: «امْحَمْ عُقَيْشْتَا»- كان رجلًا مباركًا في اعتقاد قومه، أو «صُوفيًّا»، كما يصفون، بوجهه يستمطرون السماء. وكان له أخ أصغر منه. في ذات صباح ذهب ذلك الأخ عند جماعة يشتغلون في إحدى المزارع. فزوَّدتهم امرأة بالغداء، فلقيها الغلام في أثناء الطريق لإحضار الغداء. ناولته المرأة الإناء من مكانٍ عالٍ، فسقطتْ قطرة عَرَق من جبينها على جبهته، دون أن يَشْعُر. ولمّا أحضر الغداء وجد أصحاب المزرعة رائحة «خَرُوْش» تلك المرأة فيه، فاتهموه بها، أنه قبَّلها.. وربما.. وربما.... فتآمروا في

قتله، فقتلوه، ورَدَمُوا على جثّته التراب في المزرعة التي كانوا يعملون فيها، ولم يطّلع على فعلتهم أحد.

ولمّا أقبل المساء ولم يَعُد الغلام إلى بيت امْحَمْ عُقَيْسْتَاء، جعل يتحسَّس من أخيه، ويسأل الجيران، لكنّ أحدًا لم يعلم إلى أين ذهب.

بعد أيّام من البحث والسؤال دون جدوى، قرَّر أن يسيح في الأرض بحثًا عن أخيه المفقود، لعلّه قد هاجر إلى بلدٍ ما. أعدَّ للأمر عُدَّته، وزوَّد امرأته وابنتهما الصغيرة بما يلزمهما من نفقةٍ في غيابه، ومن ذلك أن اشترى لهما سبع كِسًى لسبع سنوات. إذ قال لامرأته إنه لا يعلم متى سيكون إيابه، غير أنه قد أَذِنَ لها بالزواج إنْ مرَّت السبع سنوات ولم يَعُد. ثُمَّ مضى يطوِّف الأرض في نشدان أخيه.

ويزعم بعضهم أنه كان في إحدى مراحل بحثه قد فكَّر في اصطناع جناحين من أَدَم، كي يطير بهما، محلِّقًا، مستطلعًا مكان أخيه من الجوّ. طار حتى إذا بلغ مغرب الشمس فدنا منها، ذاب الجناحان بِفِعل حرارة الشمس، فسقط إلى الأرض، لكنّ لطف الله سخَّر له ملائكة تلقّفتْه ورفعتْه إلى السماء. هنالك قابل أخاه في الجَنَّة، فأنبأه بقِصّة مقتله. لكنه طلب إليه أنْ إذا عاد إلى الأرض أنْ يكتفي بأخذ دِيَته من قاتليه، ولا ينتقم أو يطالب بثأر، كي يبقَى له بذلك الأجر العظيم عند الله. كما أخبره أنه كان قبل موته قد وكّل غرابين ليدلّا الناس على المكان الذي دُفن فيه، وأنهما ما يزالان ينعبان ليلًا ونهارًا ويطيران من ذلك المكان إلى شجرةٍ مجاورة ثُمَّ من الشجرة إلى

ذلك المكان. فأوصاه بإكرامهما وشكرهما على وفائهما بما أوكله إليهما.

وقد اتّفق، بينا امْحَمْ عُقَيْسْتَاء يحمل وصيّة أخيه في طريقه هابطًا إلى الأرض، إذ وقف على موزّعي السحاب والأمطار من الملائكة. فطلب إليهم أن يستوصوا بنصيب قسمٍ معين من بلاد أهله بمزيدٍ من المطر، وكان قد أَضَرَّ بها المَحْل. رجاهم أن يمنحوا تلك الجهة زيادة، ولو بمقدار ما يحمله رأس «مِسَلَّة»- أي إبرة خياط- من الماء. فحذّره الملائكةُ أن هذا المقدار كبيرٌ جدًّا، وأنّ من الأصلح أنْ يرضَى بما قدّروه هم. لكنه ظلّ يُلحّ في الطّلب، زاعمًا أنه أعرف بحاجة البلاد والعباد إلى الماء، ولاسيما بعد تلك السنين من الجفاف. فكان ذلك- كما تزعم القِصّة- سببًا في خراب ذلك المكان.

وهي أرض معروفة إلى اليوم، ما تزال «سِحَاءً»- أي منهارات من الأرض- من آثار السيول.

ثُمَّ هبط امْحَمْ عُقَيْسْتَاء في غيمة خفيفة- أو «ثَمَلَة» كما يسمونها- إلى الأرض، ليحطّ في (حَيْفَة)، أي مدرّجة زراعيّة، تُسمّى (حَيْفَة امْبَقَر).

وتزعم الحكاية أنه كان قد أُمِر في السماء بأن يمضي ولا يلتفت أبدًا، مهما حَدَث، لكنه لمّا وَصَل حَيْفَة امْبَقَر، إذا بجَلَبَة عظيمة وراءه، فلم يتمالك نفسه من الالتفات، وإذا بالحَيْفَة خلفه مكتظّة بالبَقَر، ما أن التفتَ حتى ساختْ في الأرض واختفت.

ثُمَّ لمَّا بلغ البئر القريبة من منزله ألفَى صبيّة تسقي. فسألها عن شأنها، وعن أبيها وأُمّها،

فحكتْ له أن أباها غائب منذ سنين، منقطعة أخباره. فعَلِم أنها ابنته، لكنّه كَتَمَ أمره.

ثُمَّ دعته الصبيَّة إلى منـزلها، لِـمَا رأته من سوء حاله وجوعه وبَرْدِه. وأعلمته أن عُرسًا في تلك الليلة سيُقام لأُمِّها. قالوا: فأَخَذ امْحَمْ عُقَيْسْتَاء خاتمه فجعله في فم إداوتها- أي قربة الماء- التي كانت قد ملأتْها بالماء، قائلًا لها:

- «هذه إذن هديَّتي المتواضعة بمناسبة زواج أُمّك، ولتكن مفاجأتها، ولا يطّلعن عليها أحدٌ سواها.»

ضحكت الصبيّة لهذه الهديّة المتمثِّلة في خاتمه الصدئ، لكنها قَبِلَتْها على كلّ حال.

ثُمَّ تَبِع الرجلُ الصبيّة إلى المنزل، متّاقلًا بتعبه وسوء حاله. هنالك لم يعرفه أحدٌ من الضيوف

الحاضرين، لِـمَا كان قد لحق به من هزال شديد، ومسَّته من وعثاء سفر، وكآبة منظر ...

- حتى وهو هابط من الجَنَّة؟! (قاطع وليد).

- الجَنَّة لأهلها، يا بنيّ، وإنما ذهب الرجل لزيارة أخيه!.. ثُمَّ لا تقاطعني، فتضيع السالفة!...

- تفضّل!

- المهم، ما أن فتحتْ أُمُّ الصَّبيّة الإداوة، حتى اندلق الخاتم مع الماء.

- «هذا خاتم رجل «طرشي»، [أي فقير]، «يان»، [أي يا أُمِّي]، وجدتُه عند البئر، فلمّا عَلِم أن الليلة حفل زواجك طلب منّي أن أقدّم إليك خاتمه هذا هديّة. «غَمَّنِي»، [أي أشفقتُ على حاله]، مِن بَرْد هذه الليلة المطيرة فدعوته للُقْمة عشاء ودِفاء.» (قالت الصبيّة لأُمّها).

عرفتْ الأُمّ خاتم زوجها، إلّا أنها أسرّت أمره. وفيما كان الرجال يُعِدُّون وليمة العشاء، كانت الأمطار تهطل بغزارة شديدة.

- «عَزَّ الله يَعَزّ، ما أشبه مطر هذه الليلة بليالي امْحَمْ عُقَيْسْتَاء!» (قال أحدهم.. واتفق مع رأيه الآخرون).

والرجل يصغي إلى كلامهم من زاوية في المكان.

ثُمَّ حينما حان إنزال «بُرَم العَشاء»...

- بُرَم؟

- أي قدور العَشاء العظيمة. عجز مجموع الرجال الحاضرين عن إنزال البُرَم من فوق الأثافي.

- «أعطوني «امقاتّة» وأنا أُنزلها لكم!» (قال امْحَمْ عُقَيْسْتَاء).

- «امقاتّة»؟ أيش معناها؟! (سأل وليد).

- شكرًا على المقاطعة! سؤال في محلِّه! امقاتّة، أو القاتّة: ما يلتصق بقَعْر القِدْر من طعام.

- أوكي!

- لا، لا توكي.. وتعلّم لغة أهلك، يا موسى، بلا أوكي بلا خرابيط!

- اسمي وليد!

- أوكي!... قصدي طيِّب!.. أبو موسى انهبل!.. المهمّ أن القوم لمّا قال امْحَمْ عُقَيْسْتَاء: «أعطوني «امقاتّة» وأنا أُنزلها لكم»، التفتوا إلى صوته، متضاحكين من بؤس هيئته وظرفه.. لكنهم وافقوا أن يعطوه فرصة ليتفكَّهوا بطرافة الموقف.

وَقَف الرجل ومَدَّ يده متناولًا من مكان ما قد خَبِرَه أَوَاقِيَ ليديه، يتوقَّى بها حرارة القدور.

فدهشوا، وأخذوا يتلافتون: «كيف لهذا الغريب أن يعرف مكان الأواقي المخصوص من البيت؟!»

ثُمَّ إذا به يحمل البُرَم واحدة تلو الأخرى فينـزلها. فزاد دَهَشُهم، وأدركوا أن في الأمر سرًّا.

ثُمَّ لَمَّا فتَحوا القدور، إذا باللّحم كلّه في كلّ قدر قد التصق بقَعْره، أي قد صار كلّه «قاتّة»، وهو ما كان طلبه الرجل مقابل مساعدته إيّاهم. عندها تأكَّدَ لهم أن الرجل ما هو إلّا امْحَمْ عُقَيْسْتَاء.. وها قد عاد. فانصرفوا مكسوفي البال...

- وهكذا «تفركش» عرس «المدام»، مدام عقيصاء!.. (وليد ساخرًا).

- عليك نور!

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد أن استقرّ امْحَمْ عُقَيْسْتَاء في أهله عَمِل على تنفيذ وصيّة أخيه: أوّلًا، بمكافأة الغرابين اللذين وجدهما قد ضَوِيا أشدّ الضَّوَى حتى انتتف ريشهما، إذ كانا ما ينفكّان طيلة تلك السنين يتناوبان الطيران والنعيب بين شجرة هناك وجانب من إحدى المزارع، حَفَرَ امْحَمْ عُقَيْسْتَاء فيه فوجد عظام أخيه المقتول. فذَبَح للغرابين ثَوْرَه، وحَمَى لحمه لهما دون سائر الطيور، كِفاء وفائهما بما أوكله إليهما أخوه.

ثُمَّ واجه قَتَلَة أخيه، مطالبًا إيّاهم بدفع الدِّيَة، كما أوصاه أخوه. فاعترفوا بجريمة القتل، واتّفقوا معه على تسليم الدِّيَة إليه منجّمة.

استمرّوا على ذلك حتى لم يبق إلّا قِسْط أخير.

فلمّا ذهب ليتقاضاه من أحدهم أبدى له العُسر،

وعَرَضَ عليه أن يختار أحد فَرِيْرَين- أي كبشين- كانا في مربطٍ لديه مقابِل ما تبقَّى من دِيَة. وافق امْحَمْ عُقَيْسْتَاء، ثُمَّ أَخَذَ بالفَرِيْر يجرُّه بصعوبةٍ، والرجل من ورائه يدفعه بقوَّة، وهو ينازعهما الحبل لا يريد الحراك. فيما الفَرِيْر الآخر ما يَفْتُر يهذي، و«يُناتع» محاولًا الفكاك من رباطه واللحاق بأخيه.

وبعد لَأْيٍ، قال صاحب الفَرِيْر لامْحَمْ عُقَيْسْتَاء:

- «أ محَهْ، هكذا يبدو أن لا أنت ستستفيد من فَرِيْرك ولا أنا سأستفيد من فَرِيْري، فهما أخوان تَرَبَّـيَا معًا، وكما ترى لا يمكن أن يعيشا منفصلَين. فلعلّك تُعفينا من بقيّة هذه الدِّية، أو تُنظِرنا فيها إلى مَيْسَرة!»

ساعتئذ تذكَّرَ امْحَمْ عُقَيْسْتَاء أخاه الذي قتلوه، فجُنّ جنونه، واستلّ خنجره وانهال على الرجل يوسعه طعنًا، وهو يصيح به:

- «أَ وَأَسْكُتُ أنا عن فراق أخي وهذا الفَرِيْر لا يسكت عن فراق أخيه؟!»

...

- هذه أُسطورة على سذاجتها، مليئة بالرموز الاجتماعيّة والميثولوجيّة.. (علَّق وليد).

- لا أدري ماذا تعني.. لكن نعم!... المهمّ لا يفوتنّك الجانب المتعلِّق بفتنة النساء والحُبّ وراء انبثاق هذه القِصَّة. وهو مغزى حكايتها لك حينما قلتَ لي: «الله، ما كان أطيب روائح النساء في كُلّ بيتٍ وزقاق!».. (عقَّب أبو وليد).

- هم في ذلك كمختلف الشعوب التي تُنسب إلى المرأة فيها مختلف الشرور التي تَنْجُم عن حماقات الرجال.. (قال وليد في سِرِّه).

الفصل الخامس

وفي ذات ليلةٍ حَكَتْ أُمُّ وليد أيضًا، من ضِمن ما تحكي، قِصَّةً أخرى، طالما ألهبتْ خيال وليد، لا تَقِلُّ تشويقًا وغرائبيَّة عن قِصَّة (امْحَمْ عُقَيْسْتَاء) التي حكاها أبوه. وذلك عن فتاتَين، إحداهما اسمها (مَيَّـة) والأخرى اسمها (مجَادَة).

تقول قِصَّة (مَيَّـة ومجَادَة)- حسب رواية أُمّ وليد- إنَّ امرأتين كانتا ذات نهارٍ على بئر ماء؛ وإذ قامت أشدُّهما جَمالًا وأبهاهما طلعةً تَغسل شَعرها وتمشطه، ما كان من الأخرى إلَّا أن دَفعتْها لتسقط في أعماق البئر. كانت الغَيرةُ تملأُ نفس المرأة المعتدية، ويمضغ قلبَها الحقدُ؛ فقد كانت وصاحبتُها ضَرَّتين في عِصمة رجلٍ من القرية.

ماتت السيِّدة الجميلة في غَيابة الجُبّ، ولم يعلم أحدٌ أين اختفت؟: أبتلعتها الأرض، أم غابت في السماء؟

ثُمَّ إنَّ الله أنبتَ المِشط، الذي كان ما يزال حين سقطتْ المرأة في البئر بين غدائر شَعرها، فصار شجرةَ سِدْرٍ هائلةٍ، تَخرج من قلب البئر. وكان للمرأة المقتولة بنتٌ اسمها (مَجَادَة). كانت عمَّتها...

- عمَّتها؟ (سأل وليد).

- العَمَّة تُطلق على ضَرَّة الأُمّ، أو مَن اقترن بها الأب من النساء عمومًا. في حين تُسمَّى في لهجات أخرى: خالة.

فكانت عَمَّةُ (مَجَادَة) ، (قاتلة أُمِّها)، تُرهقها في عمل البيت، كما تُكلِّفها بأن تَسْرَح بَقَرًا، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقَّة المضنية، داخل البيت وخارجه. مع التقتير عليها في الطعام والكساء. وكانت الفتاة تَـمُرُّ

على شجرة السِّدر تلك كلَّ يوم، فتهزُّها لتُساقط عليها بدل الكَيْن- وهو ثمر السِّدر- زبيبًا. فتأكل منه ما شاء الله لها أن تأكل، وترعَى البقرات حتى المساء.

كانت الفتاة، كأُمِّها، جميلةً جدًّا، فظَلَّت عمَّتُها تشتعل غَيرةً منها، كما كانت تغار من أُمِّها من قبل. ومع أنها كانت تُضيِّق عليها في الطعام، فلا تعطيها منه كما تعطي أولادها، فقد كانت تدهش لما يظهر عليها من الصِّحَّة الجيِّدة وحُسن التغذية.

- تُرى ما الذي كانت تأكله (مجَادَة)؟!

بقي هذا السؤال يُلِحّ على ذهن السيِّدة القاتلة، حتى قرَّرت ذات صباح أن تُرسل ابنتها، واسمها (مَيَّة)، مع أختها (مجَادَة) لتلاحظ لها ما الذي تأكله، حتى إذا رجعت أخبرتها.

جهَّزت أُمُّ (مَيَّة) ابنتها لتلك الغاية، بأن غسَّلتها، ودَهَنَتْ جسمها بِدِهان، وألبستها أنظف الثياب، وأمرت (مجَادَة) أن تحملها على ظهرها، وهدَّدتها بأنها لو وجدت أَثَرًا لتُرابٍ أو تلوُّثٍ في جسم ابنتها أو في لباسها، فسيكون عقابها شديدًا على إهمالها. وكانت قد بالغت في نظافة ابنتها، وفي دَهن جسمها، وشَعرها، كي يظهر عليها أيُّ أَثَرٍ من مخالفة (مجَادَة) أوامرها بعدم إنزالها إلى الأرض مطلقًا.

ولَمَّا حان إيراد البَقَر على ذلك البئر الذي قُتِلَتْ أُمُّ مجَادَة بإلقائها فيه، أَخذتْ (مجَادَةُ)، كعادتها، تهزُّ بجذع السِّدرة، لتُساقط عليها الكَيْنَ وقد تحوَّل إلى زبيب، فتأكل منه، وتُطعم أختها (مَيَّة). فجَعلتْ (مَيَّةُ) تَدُسُّ من ذلك الكَيْن/ الزبيب لتُري أُمَّها حين تعود: ماذا كانت تأكله (مجَادَةُ) وتتغذَّى عليه.

وعادت (مَيَّةُ) مساءً تُخبِّر أُمَّها عمَّا وجدت ورأت، وأن (مجَادَة) إنما تأكل من ثمر تلك السِّدرة النابتة على البئر، ثُمَّ أخرجتْ من بين شَعرها بعض حبَّات الزبيت، التي كانت قد خبَّأتها، قائلةً:

- (مجَادَة) تأكل من هذا...

ونَثَرَت أمامها بعض الزبيب الذي خبَّأتْه في شَعرها.

فإذا هو قد تحوَّل إلى «قُعْرَة»، أي صراصير صغيرة!

فصارت أُمُّ (مَيَّة) تصيح بها، في ذُعر:

- وأكلتِ معها من هذا؟!

- نعم، لكن لم يكن هكذا...

- تبًّا لكِ ولها، كيف تأكلين «امْقُعْرَة»؟!

على كلِّ حال، اطمأنَّت أُمُّ (مَيَّة) بعض الشيء إلى أن (مجَادَة) إنما تأكل من تلك الحشرات التي أرتها إيَّاها (مَيَّة). ومع ذلك فقد قرَّرت أن تُرسِل في اليوم التالي

ابنها أيضًا؛ لأنها جَعلتْ تُفكِّر بعد بُرهةٍ أن إفادة (مَيَّة) لم تكن مقنعة، ولا حتى مصدَّقة. فجهَّزت أخا (مَيَّة) بمثل ما جَهَّزَت به (مَيَّة) في اليوم السابق، وأمرت (مجَادَة) بالأوامر نفسها: أن تَحمله على ظهرها، وتَهدَّدتْها بمثل ما تَهدَّدتْها به من قبل.

كان أخو (مَيَّة) صبيًّا طيِّبًا، ويُحبّ أخته (مجَادَة). وببراءة الأطفال، كان يُحِسّ ما تُعامَل به من ظُلمٍ وتمييزٍ من أُمِّه وأبيه. فجَعل يُخبِّئ في شَعره بعض الدِّهان الذي دَهَنَتْه منه أُمُّه. ولمَّا ابتعدا عن الدار، ومجَادَة تحمله، طلب إليها أن تُنزله أرضًا. غير أنها خافت ممَّا هدَّدتها به أُمُّه من عقابٍ، إنْ هي فعلت ذلك:

- لا أرجوكَ، أخي، أخاف أن تعلم عمَّتي، فتعاقبني...

- كلَّا، لا تخافي! ثُمَّ إني أريد أن ألهو وألعب، وأن تستريحي أنتِ من حَملي. وحينما يحين رواحنا إلى البيت سأَتَفَحَّس من هذه «الفِحاسة»- أي سأدَّهِن من هذا الدِّهان- من جديد، وكأنِّي لم أنزل إلى الأرض قط، ولن يتبيَّن لأُمِّي من الأمر شيء.

وافقتْ مَجَادَة على إنزاله عن ظَهرها إلى الأرض. فجَعَل الولد يرتع ويلعب تارةً ويساعدها في عملها تارةً، حتى حان وقتُ إيراد البَقَر. فلمَّا أوردتْ مَجَادَةُ البَقَر، وأخذتْ تتناول من زبيب السِّدرة العجيبة، أَكَلَ معها أخوها من تلك الثمار الطيِّبة الشهيَّة.

وإذ حانت العودة إلى الدار مساءً، وأصبح الأَخَوان قاب قوسين أو أَدْنَى من فِنائها، أخرج الصبيُّ لِـمَجَادَة ذلك الفِحاس الذي كان اصطحبه معه، فدَهَنَت أعضاءه من رأسه حتى أخمص قدميه؛ كي

يظهر كأنه لم يلامس ثرى الأرض منذ الصباح، وأن مَجَادَة قد بقيت تحمله طيلة النهار، كما أمرتها أُمُّه، ثُمَّ قامت هي متظاهرةً بحَمله على كاهلها، حين صارا لدى الباب فقط.

وكان متوقَّعًا أن تُلِحَّ الأُمُّ في مساءلته:

- قل لي، يا بُني: لعلّ مَجَادَة ما أنزلتْكَ عن ظهرها؟

- كلَّا، يا أُمِّي! «عُوَيْنها»، ظلَّت تحملني على ظهرها منذ غادرنا الدار حتى عُدنا!

- «عُوَيْنها»؟! دعك من هذا! تُرى ما الذي رأيتها تأكله هناك؟

- لم أكن لأُصدِّق، يا أُمِّي، لو لم أرها بعينَيّ! فِعلًا، هي إنما تأكل من تلك القُعْرَة، كما سبق أن أخبرتنا مَيَّة!

فاطمأنت السيِّدة. فلتأكل مَجَادَةُ هنيئًا مريئًا، اللهم لا حسد، ولا ضِنانة!

ومَرَّت الأَيَّام. حتى كان ذاتَ يومٍ (هَوْدُ)، أي حفل خِتان، لدى بعض الجيران من القرية. فازَّيَّنَتْ أُمُّ مَيَّة ما شاءت لها الزِّينةُ، وزَيَّنَتْ ابنتَها مَيَّة، من أجل حضور مهرجان الخِتان ذاك، وغَدَتا معًا إلى مكان الاحتفال المشهود. أمَّا مَجَادَةُ، فكانت تلك السيِّدة، إمعانًا في اضطهادها، قد خالطت لها حَبًّا كثيرًا بكومة ترابٍ، وأمرتها أن «تَنْجِي» ذلك الحَبَّ كلَّه، لتَصفيته حَبَّةً حَبَّةً، وتخليصه من التراب، ثُمَّ تقوم بعدئذٍ بطحنه، وتُعِدّ طعام الغداء لأهل البيت، بحيث لا تعودان، هي ومَيَّة، إلَّا وقد أَتَمَّت ذلك على أكمل وجه. وفَرضتْ عليها، إلى ذلك، أن تقوم بتنظيف مَرافق الدار والأفنية، إلى غير ذلك من الأعمال الخدميَّة اليوميَّة! وكانت السيِّدة بذلك

تسعى إلى أن لا تجد مجَادَةُ أَيَّةَ فرصةٍ محتملة لحضور ذلك الاحتفال الرائع، كغيرها من الناس.

* * *

وقد كان اتَّفق لمـَجَادَة مِن قَبْل أن كانت ذات يومٍ تَـهُزُّ بجذع السِّدرة ، كعادتها حينما يَعُضُّها الجوع بنابِهِ، أن سمعتْ فجأةً نداءً من أصل الشجرة:

– من هذا الذي «يُدَهْشِل» برأسي، أي: يُـهَزْهِز به؟!

فارتعبتْ مجَادَة جدًّا، وصرختْ لا إراديًّا:

– هذه أنا، مجَادَة!

– أنتِ مجَادَة؟! لا تخافي ولا تحزني، يا مجَادَة! أنا أُمُّكِ! ولكن لماذا تُدَهْشِلينَ برأسي هكذا؟

– بِـيَ جُوْعٌ، «يان»– أي يا أُمِّي– وأنا لا أَجِد ما آكله إلَّا من هذا الكَيْن!

- «القَوي الله»، يا ابنتي! لا بأس عليكِ! لكن خبِّريني: هل ما زالت البَقَرَةُ الغبراءُ حَيَّة؟

(وكانت لأُمِّ مجَادَة في حياتها بَقَرَة غبراء)..

- كلَّا، لقد ذَبَحَها أبي.

- ذَبَحَها؟! متى؟...

- نعم ذَبَحَها، منذ عِدَّة أيَّام...

- حَسَنًا، اسمعي: سأوصيكِ بوصيَّة، فأعملي بها ما استطعتِ إلى ذلك، ولا تنسَي!

- سأفعل، يا أُمِّي.

- جمِّعي، يا ابنتي، ما وجدتِ من «مِشِّ» البَقَرَة- أي عظامها- ثُمَّ ادفنيها في «سِفْل» الحِمار!

- ما معنى «سِفْل» الحِمار؟ (سأل وليد).

- السِّفل: حُجرة تُجعل للحيوان. وسُمِّيت بذلك لأنها تكون عادةً في أسفل مكان من الدار. (أجابت الأُمّ).

قالت مَجَادَة لصوت أُمِّها الذي كلَّمها من الشجرة:

- سأفعل.. ولكن لماذا أفعل ذلك؟! .. لماذا؟!.. يان.. يااان... يا...

واختفى الصوتُ، فلم يَعُد يجيب.

نَفَّذَتْ مَجَادَة في اليوم التالي ما أوصتها به أُمُّها، وإنْ لم تُدرك له سببًا.

***

فلمَّا كان ذلك اليوم الذي أمرتْها فيه أُمُّ مَيَّة بما أمرتْها به من أعمالٍ تعجيزيَّة، لكي تَحُوْل دونها وحضور مهرجان الخِتان، تذكَّرتْ تلك الحكاية التي جَرَت لها مع أُمِّها إذ خاطبتها من السِّدْرَة، فذهبتْ إلى ذلك

الموضع الذي دَفَنَتْ فيه عِظام البَقَرة. وعَنَّ لها أن تحفر الأرض عن تلك العظام التي دَفَنَتْها، حسب وصيَّة أُمِّها، تَطَلُّعًا لاستكشاف السِّرِّ وراء تلك الوصيَّة الغريبة. فما هي إلَّا أن بَحَثَتْ الترابَ عن الحفرة التي جَعَلَتْ العِظامَ فيها، حتى انبعث منها عالَمٌ من المخلوقات العجيبة، من العبيد، والجواري، والحيوانات، والدَّجاج، والكنوز، والزِّينات، والحُلَى، والحُلَل، ممَّا لا حصر له ولا وصف يُحيط به. فاكتست من تلك الحُلَل، واحْتَلَتْ من تلك الحُلَى، وعملتْ المزيِّناتُ من أولئك الجواري على تزيينها حتى غَدَتْ في أبهى صورةٍ تخلب الألباب. ثُمَّ إنها أمرت العبيد والجواري بتنقية الحَبِّ من التراب، مستعينين بالدَّجاج في ذلك، ثُمَّ قاموا بطحنه،

وإعداد الغداء، وتنظيف البيت، كأجمل ما يكون وأَتـَمِّه.

ثُمَّ انطلقتْ مَجَادَةُ كالمَلَك الطائر إلى ذلك الهَوْد. وكانت فتاةً بارعة الجمال جدًّا؛ وهو ما كان يُشعِل غَيرة عَمَّتها منها أكثر من أيِّ أمرٍ آخر، مثلما كانت من قبل تغار من أُمِّها غَيرة جنونيَّة.

وعلى حين غِرَّة، التمحتْ مَيَّةُ أختَها مَجَادَةَ في الحفل تَرِفُّ بين الفتيات، تخطف الأبصار. أمعنتْ النظر فيها، فعرفتْها، أو كادت. قالت، مخاطبةً أُمَّها:

- انظري، أُمِّي، ما أشبه هذه الفتاة بمَجَادَة!

- فِدًى لتلك الفتاة مَجَادَة، ما أبعد الشَّبَهَ بينهما، فشَتَّان ما بين الثُّريَّا والثَّرى! (ردَّت أُمُّ مَيَّة).

وبَقِيَتْ مَجَادَةُ تُسَرِّح طَرْفها في ذلك المحفل، تتفرَّج على ما سَرَّ فيه حينًا وما أدهش حينًا آخَر. وإذ

بشابٍّ، وقد سَحَرَتْ لُبَّه بجمالها، ما ينفكُّ يطوِّف حولها، وقد قَرَّر أن يعرف إلى أيِّ الأُسَر تنتمي؟ وإلى أيِّ البيوت من القرية ستعود؟ وشَرَع يحلُم بأن سيخطبها من أهلها، فقد شغفتْه حُبًّا، وأضحى مُنجذِبًا إليها انجذابَ الكوكب إلى شمسه.

ظَلَّ الشابُّ يَلتمسُ «فُرْقَةً» بين جموع الناس ليَصِلَ إلى مجَادَة، وقَصَرَ عليها عينَه، يتتبَّعها خطوةً بخطوةٍ. وما أن أوشك الاحتفال على الانفضاض، حتى هَبَّت مجَادَةُ عائدةً إلى البيت. وتَبِعها الشابُّ في طريق عودتها. قيل: وكان قد رماها بسَهمٍ صغيرٍ جدًّا في عَقِب رجلها، لكي تكون له فيها علامة يعرفها بها.

عادت مجَادَةُ إلى الدار، فجمَّعت أولئك الأعوان، من العبيد والإماء والخدم والكنوز التي حصلت عليها، وأعادت ذلك كلَّه إلى حيث كان، من تلك الحُفرة في

سِفْل الحِمار، وطَمَرَتْه بالتراب. وارْتَدَتْ ثيابها التي كانت عليها قبل ذهابها إلى الحفل.

وما هي سوى دقائق وعادت أُمُّ مَيَّة ليزداد غيظُها؛ إذ لم تجد مأخذًا تتَّخذه ذريعةً للنَّيل من مَجَادَة، فَاغِرَةً فاها في ما رأت: كيف تستطيع هذه الفتاة ما لا يستطيعه سواها؟!

وما هو سوى يوم أو يومين، وجاء الفتَى يهيم حُبًّا بمَجَادَة، وتَقدَّم لِخطبتها من أبيها. فوافق. وجُنَّ جنون عمَّتها: ما له لا يرى ابنتها هي، فيخطبها؟! وحاولتْه تلميحًا وتصريحًا أن يَعْدِل عن اختياره، فيخطب مَيَّة، لكنَّه أَبـَى إلَّا مَجَادَة. غير أنه كان لمـَجَادَة شَرطٌ وحيدٌ على أهلها، لا تنازل عنه للقبول بالزواج، وهو إعطاؤها ما في «سِفْل الحِمار» فقط!

فذهب شرطها مَثَلًا لما يبدو في ظاهره تافهًا ووراءه سِرٌّ عظيم.

كَرْكَرَتْ عمَّتُها وابنتُها ضاحكتَين، ممَّا ظنَّتاه حماقةً من مجَادَة لاشتراطها ذلك الشَّرط السخيف. وما كانتا تعلمان ما أُخفي لمـَجَادَة في سِفل الحِمار من قُرَّة عَين.

- هذا فقط ما تشترطين؟!

- نعم، هذا فقط!

- حُبًّا وكرامة! فما ثَمَّةَ إلَّا «كُرُّ» الحِمار- أي رَوْثُه- وهو حلالٌ عليكِ! حلالٌ عليكِ «كُرُّ» الحِمار، والحِمار نفسه، أيضًا، لو شئتِ!...

ثُمَّ لَمَّا رأى أخو الشابّ الذي تزوَّج مجَادَة ما حظي به أخوه من سعادة، وما صار إليه من نعيم، أَحبَّ هو الآخر أن يخطب أختها مَيَّة، لعلّ حظَّه معها يكون كحظِّ أخيه مع مجَادَة.

بادَرَ إلى خِطبة مَيَّة، وسرعان ما اقترن بها. غير أنه لم يجد من ذلك الذي كان يُؤمِّل شروَى نقير. بل الأدهى أنه تَبيَّن أن مَيَّة بلهاء، وتنتابها لوثاتٌ من العَتَه. فبقي معها على قَلَقٍ، كالحَبِّ على النار، لكنه صَبَرَ عليها، لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرًا.

وفي ذات يومٍ اتَّفَق الأَخوان على أن يرحلا لأداء فريضة الحجّ. وكانت مجَادَةُ يومئذٍ حُبلَى، وكذلك كانت مَيَّة. وكانت مجَادَةُ قد استعدَّتْ بكبشٍ، اقتنته ليُذبح مع عودة زوجها من الحجّ. لكنَّها كانت تُخفيه عن الأعين، مخافةَ أن تُصيبه عَين. ووَضعتْ حَملها خلال تلك الفترة، ورُزقتْ ولدين توأمين رائعين.

ولَمَّا أن جاءت مَيَّةُ لزيارتها، قالت:

- أرى لديكِ هُنْدُوْلَين، أي مَهْدَين؟! أنَّى لكِ هذا؟!

- رُزِقْتُ طفلةً، فشَحَرْتُها نِصفَين؛ فوضعتُ كلَّ نِصفٍ في هُنْدُوْل! كي يُسَرَّ زوجي حينما يعود فيُخَيَّل إليه أَنِّي أنجبتُ له طِفلَين!...

- ما شاء الله.. ذكيَّةٌ دائمًا أنتِ، يا أختي! وما هذا الصوت؟ [وكان الخروف خلف ستار].

- إنه كلب، ربَّيتُه!

- لِـمَ؟

- لكي يكون لنا ذبيحةً حينما يعود زوجي بالسلامة!

وكان بيت مَجَادَة نظيفًا جدًّا، بالغ الترتيب. حيطانه مُمَـرَّجَةٌ بالطِّين.

- قولي لي، أختي، كيف فعلتِ حتى صار بيتكِ نظيفًا وجميلًا هكذا؟! [سألت ميَّةُ مَجَادَة]

- الأمر هَيِّن. أنا، فقط، أُجمِّع بُراز الكلب، وأُمَرِّج به جُدران البيت! وهذا سِرُّ طِلائه الجميل، ورائحته الفوَّاحة!

***

وبعد مُدَّة وَضَعَتْ مَيَّةُ طفلةً. فقامت بمِثل ما قالت لها مَجَادَةُ إنها فعلت بمولودتها المزعومة؛ شَحَرَتْها نِصفين، جاعلةً كلَّ نِصفٍ في هُنْدُوْل.

ثُمَّ احتالت في الإمساك بكلبٍ أجرب، جَعلتْ تُغذِّيه صبحًا وعشيًّا، حتى كَبُر وسَمُن. ثُمَّ أخذتْ تُجمِّع بُرازه وتُمَرِّج به جُدران البيت وسقفه! كيما تفعل كما فعلت أختُها؛ فتُهَيِّئ عُشَّ الزوجيَّة، ليعود الحاجُّ المبارك هانئًا سعيدًا!

وآنَ رجوع الأَخَوين من الحَجّ. ولَكَمْ سُرَّ زوجُ مَجَادَة بعودته إلى زوجه الجميلة العاقلة، وابتهج

بطِفلَيه الجميلَين، وسعِد ببيته النظيف العابق بالطُّيُوب. وفي اليوم التالي ليوم عودته ذَبَحَ الكَبْشَ السَّمين، وأَوْلَـمَ عليه لأقربائه وجيرانه جميعًا.

أمَّا مَيَّة، فما أن دنا زوجها الحاجّ من فِناء الدار حتى أطلقت في وجهه ذلك الكلب المسعور! فمزَّق ثيابه الأنيقة شَرَّ مُمزَّق، وأدماه بظفره ونابه، فلم يُنْجِه منه إلَّا الفرار مُحْتَـمِيًا داخل البيت! لكن بلاءه من رائحة البيت النتنة كان أفظعَ من بلائه بالكلب، وأَطْرَدَ له منه! رائحة جيفة الطفلة القتيلة، ورائحة البيت المطليِّ على يدَي مَيَّة!

كَسَعَ زوجُ مَيَّـةَ مَيَّـةَ من بيته، مطلِّـقًا إيَّاها «بالثلاث»، لتعود إلى أبوَيها، غير آسفٍ إلَّا على حَظِّه العاثر منذ عَرَفَ تلك المرأة الحمقاء! ثُمَّ فَرَغَ طويلًا لإصلاح بيته الذي عاثت فيه مَيَّةُ فسادًا!

وهكذا، فقد كان ذلك- من وجهة نظر مَجَادَة- جزاءً وِفاقًا لما كابدته مع أُمِّ مَيَّة من طول اضطهاد.

الفصل السادس

هكذا، لا يكاد يذكر وليد من ملذّات الصِّبا ولهوه- عدا تلك الحكايات والأساطير، التي كانت بمثابة أفلام الأطفال اليوم، إلى جانب غزوات الموز العابرة- شيئًا يُذكر. لقد كان الجفاف يَلُفُّ كلَّ شيء.. كلَّ شيء، رُغْم الأمطار الغِزار- قبل امْحَمْ عُقَيْصَاء وبعده- ورُغْم الجَمال في الطبيعة والطِّباع.

والجفاف ذاك كان وليدَ ضيقِ ذاتِ اليَدِ تارةً، ووليدَ الوُعورة تارةً، أو وليدَ أبي وليد نفسه تارةً ثالثة. ذلك أنه كان يريد لأولاده أن يبلُغوا من المثاليَّة والكمال ما كان يَحُوْل دونه وقبول لهوهم ولعبهم، أو اختلاطهم بغيرهم، وغيابهم طويلًا عن الدار. كان يخلط طبعه هذا بمحظورات دِينيَّة كثيرة، لا تنتهي حتى تبتدئ، يُعمِّمها في نوافير وعظيَّة على أفراد الأسرة، وفي كلّ شأن. نعم، كان الجميع يؤمنون بعدم

انفصال الدِّين عن الحياة، لكنَّهم كانوا يؤمنون كذلك بأن الرجل كان يغالي، ويستغلّ الدِّين أحيانًا لمآربه وغاياته، وتسويغ طبائعه النفسيَّة والاجتماعيَّة، التي تغلب عليها الانطوائيَّة، والنزوع إلى الانغلاق. يشفع ذلك بسرد الحكايات الشعبيَّة عن بعض القُرَى المدمَّرة بسبب ما أظهر أهلُوها من بَطَرٍ أو فساد.

...

- نعوذ بالله من شَرِّ ما في الغيب! احمدوا الله واقتصدوا، لا تكونوا كأهل قرية الحنانة..
- مَن هم؟ وماذا وقع؟ (تسأل أُمُّ وليد).
- قرية ما تزال أطلالها شاهدة.. كان أهلها أهل لَـهْوٍ ولَعِب. مع أن أحدهم كان «مثل فقير اليهود؛ لا دُنيا ولا دِين!»
- ماذا فعلوا؟

- يقال: كانوا ذات مساء في محفل رقصٍ وغِناءٍ صاخبٍ، إذ ماتت عجوزٌ من القرية، فما هان عليهم تركُ ما هُم فيه من فَرَحٍ ومَرَحٍ وقطعُ ما هُم فيه من لَعِب، فما كان منهم إلَّا أن وضعوا في فَمِ العجوز مَرْوَة بيضاء، وكأنها تبتسم، ثُمَّ أسندوها إلى خشبةٍ في محفلهم، واستمرُّوا على ما هُم فيه من حفلٍ حتى الصباح. فأهلكهم الله... نعوذ بالله من غضب الله!..

- اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السُّفهاء منَّا!..

- أو أهل قرية الطَّرَف، الذين سَلَّط الله عليهم الإسليل...

- مرض؟ (يسأل وليد).

- لا.. بل دويبة لم تَدَع لهم شيئًا أتت عليه إلَّا جعلته كالرَّميم، أو أفسدته حتى هلكوا...

– ما نعرف هذه الأماكن!.. أين تقع؟

– وماذا تريد بهذه المعرفة، يا بُنَي؟ ستعرفها إذا كبرتَ. هذه ديارٌ مغضوبٌ عليها. ويقولون إنه يُستحبّ في مثلها من آثار الأُمم التي أهلكها الله بذنوبها الإسراع عند المرور عليها وعدم التلبُّث. هذه الجبال في ذاتها شاهدة على أُمَم انقرضتْ، يا بُنَي، مع أنه قد كان لها في يومٍ من الأيام الصِّيت والنفوذ، يقصدها الناس من كلّ مكان..

– ما أظن ديرتنا هذه كان يقصدها، على وعورتها، غير أهلها، في أيّ زمنٍ من الأزمان.. ماذا يبغي الناس فيها؟!.. (تَشكَّك وليد).

– أنت لا تعرف ديرتك، إذن! ديرتك، يا موسى، رائعة، لكنها عند بعض أهاليها اليوم «مثل الشَّعير؛ مأكول مذموم!» مع أنها كانت مَهْوَى أفئدة الناس

على وُعورتها.. وقد قصدها حتى أهل الشَّام منذ قديم الزمان..

- مَهْوَى أفئدة؟!.. والشَّام، مرَّة واحدة؟!

- نعم الشَّام.. (على العموم، كلّ ما كان في جهة الشمال فنحن نسمِّيه شامًا).. أ وما سمعت عن (شَطِّ امْصَبايا)؟

- لا، بالله، ما سمعت! وما (شَطّ امْصَبايا) هذا؟

- شَطّ امْصَبايا، أو الصَّبايا، اسم رَيْدٍ زراعيٍّ واسعٍ في الجبل الأسفل. إذا سألت أهل الجهة الذي هو فيها، حَكَوا لك عنه قِصَّة.. سيقولون لك: إنه جاء وَفْدٌ من أهل الشَّام إلى كاهنٍ من أهل قُرَى (نافية).. و(نافية).. تعرفينها سَلَه؟ (خاطب (أُمَّ وليد)، وكانوا ينادون «سلامة» بـ«سَلَه»)..

- أسمع عنها..

- هي خرائب الآن. ويُقال إنها كانت مع وَفْد الشَّام بِنْتٌ متَّهمة بالزِّنا، فجاءوا يستفتون كاهن أهل نافية ليُثبت لهم براءة البِنْت من تهمتها تلك. فشَطُّ الصَّبايا هو المكان الذي نَزَلَتْ فيه الصَّبايا، أي البنات القادمات مع الوَفْد...

- لكن هذا، يا أَبَـتِ، لا يُثبت شيئًا في حدِّ ذاته...

- هُم يحكون قِصَّة، قال بعض المتعلِّمين إنها شبيهة بما وَرَدَ في بعض كتب التاريخ حول هند أُمِّ معاوية، أحد الملوك القدماء..

- هند بنت عُتْبَـة.. «وهل تزني الحُرَّة؟!». إنما تلك «فبركة» طائفيّة شيعيّة!

- هي أو غيرها.. المهم، يقول أهل الجهة: إن أبا البنت خَبَّأَ للكاهن خبيئة، يمتحنه بها، هي حَبَّة بُـرٍّ أدخلها في إحليل حصانه. فلمَّا سألَ الكاهنَ عن

الخبيئة، قال: «ثَمَرَة في كَمَرَة!». قال: «لكن أوضح قليلًا!» قال: «حَبَّة بُرّ.. في أَيْر مُهْر!». قال: «صَدَقْتَ! عليك من الله ما تستحقّ!».

- قال له: «عليك من الله ما تستحقّ!»؟.. وفي الجاهليَّة؟!

- لا الزيادة الأخيرة من أبيك! ما أَحَبَّكَ في المقاطعة!

- آسف، أكمل!

- بَرَّأَ الكاهنُ البِنْتَ المتَّهمة بالزِّنا، بل أخبرهم أنها ستُنجب ولدًا سيصبح مَلِكًا على العرب.. وعلي بن محمَّد يؤكِّد أن قِصَّة هؤلاء العوامّ عن (شَطّ الصَّبايا) قديمة، وأنها تتطابق مع ما هو مُدوَّن في كتب تاريخيَّة. هذا معنى كلامي إن تاريخ ديرتنا قديم، وأنها كما قلتُ لك، يا بُنَي، شاهدة على أُمَم كثيرة، وكان يقصدها الناس حتى من الشَّام. مع

أن نافية التي حدثتْ القِصَّة فيها هي اليوم مجموعة قُرًى خَرِبَة، منها ما يسمُّونه: الحَلْفَة، والمصَيْنْعَة، وخَيْران...

...

على هذا النحو كانت حكايات أبي وليد لا تَنضب. ولعلّ تلك الحكايات هي ما كان يُغْرِي وليدًا أكثر بالتنقُّل والاطِّلاع على مواطن أخرى غير الجهة الغربيَّة من الجبل التي كانت تقع فيها دارُه. ذلك على الرُّغم من الحِصار الذي كان يضربه أبوه عليه وعلى أسرته كافَّة. أو ربما ازداد الإغراء بسبب ذاك الحِصار المضروب نفسه.

لقد حكى له أبوه كثيرًا من الحكايات حول آثار المنطقة. وكان لكلِّ مكانٍ فيها، أو منزلٍ منها، اسمٌ وحكايةٌ بعينها، تتوارثها الأجيال. على أن بعض الأماكن المجهولة التاريخ، أو الغريبة التكوين، كانوا ينسبونها إلى دُوَل قديمة،

أو حتى إلى التاريخ العريق لعالم الجِنّ في المنطقة. وللجِنّ هناك تاريخ أطول من تاريخ الإنس! وكيف كان لهم أن يعرفوا تاريخهم، وهم منذ قرون متطاولة يَحْيَون ثقافةً شفاهيَّة، أشبه بثقافة قبائل التِّبْت فوق جبال الهملايا! حتى إنهم- رغم حرصهم الشديد على أشجار الأنساب، وارتباطها العضوي بأهم طقوسهم وأعضائهم ومواسمهم، (أي الختان)- ما كانوا ليستيقنوا على وجه الدِّقَّة من سلاسل أنسابهم البعيدة إلَّا اليسير. ذاكرة قصيرة، شاهدة على خَطَل الصورة النمطيَّة عن الذاكرة الخارقة لأمثالهم من الشعوب الشفاهيَّة. ومع ذلك فقد كانوا يُجمِعون (أحيانًا) على أنهم جميعًا ينحدرون من: آدم بن طين بن تراب! ربما كانوا قد هَبَطُوا على الجبال من الجنَّة مباشرة! مَن يدري؟! فآدم هَبَطَ على جبلٍ، اختُلِف في مكانه، وزَعَمَ (المسعودي) أنه ببلاد

الهند.. ولا يُتصوَّر أن جغرافيَّة الأرض كانت إذ ذاك على صورتها اليوم.

أجل، لعلَّ جَدَّهم المباشر إنما هو آدم شخصيًّا! ولاسيما أن لهجتهم كانت عربيَّةً قُحَّةً قديمةً، لا يفهمها عنهم كثير من الناس من أهل المدن والحواضر، ممَّن فَسَدَتْ ألسنتُهم واعْوَجَّتْ عُروبتهم.. فقد تكون لغتهم تلك لغةَ آدم، عليه السلام، والجيل الأوّل من أبنائه، كما تقول عنهم نادرةٌ شعبيَّة! ما الغريب في تصوُّر هذا؟ فآدم كان يتحدَّث العربيَّة الفصحى، وأهل الجنَّة كذلك، قبله وبعده، يتحدَّثون بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وينظمون به الشِّعر الموزون المقفَّى، كما تحكي أساطير الأوَّلين.. وما أكثرها!

كان الغموض يَلُفُّ تاريخ الجبال، وآثارها، وحكاياتها، كما تَلُفُّ الخيالاتُ شِعابها، وأدغالها، ووديانها. وكان وليد هو الوحيد من بين إخوته الذي وُلِدَ بِشَبَقٍ عارمٍ

إلى اكتشاف العالَم من حوله؛ فإذا هو يكسر ترشيد أبيه الصارم لمخالطة الناس والابتعاد عن المنزل، مثلما كان يكسر مِن قَبْلُ الترشيد الصارم في استهلاك الموز! يفعل ذلك بذكاءٍ يغفر له تحدِّيَه غير المقبول عند أبيه. فما أن يسمع بأن أباه سيذهب إلى مكانٍ بعيدٍ أو قريبٍ حتى يتبع خطاه في خفاء، حتى إذا آنـَسَ أنه قد قَطَعَ مسافةً بعيدةً عن المنزل، ما كان عليه حينئذ أن يُظهِر نفسه؛ لأن أباه في هذه الحالة سيكون مضطرًّا إلى اصطحابه، إذْ لم يَعُد بإمكانه إعادته بنفسه إلى المنزل، وما كان ليطمئنَّ عليه أن يعود تلك المسافة وحده. وكذا كان يخاتل أوامر أبيه لتحقيق ذاته وأحلامه وحُبّه للاكتشاف.

وقد كان يزيد من شغفه بالرحلة تلك الأقاصيص التي يسردها أبوه على الأسرة بعد كلّ رحلة، حول مشاهداته وما مَـرَّ به من غرائب وطرائف. وكان أبو وليد موهوبًا في

القَصِّ على نحو مثير. إلَّا أنه كان- إذ يفتِّح خيال أولاده على عوالم وغرائب- يَحُوْل بينهم وأن يَخْبَرُوْها بأنفسهم. هذا ما كان يشكِّل معاناة وليدٍ الأُولى في تلك السِّنِّ، ساعيًا لكسر الطوق الزماني والمكاني والنفسي حول عنقه.

لله ما كان أبطأَ الثواني والدقائق هناك! لقد كانت في ثقلها جبالًا لا تتزحزح. متى سيكبر؟ ومتى سيرحل ليرى ويعرف من العالَم مثل ما رأى أبوه وعرف، أو فوق ما رأى أبوه وعرف؟!

يظلّ يُراقب الوقت وهو يمرُّ زحفًا حربائيًّا مملًّا. يسائل نفسه: كيف احتمله الناسُ حتى مَرَّ عليهم كلَّ تلك المسافات من العُمْر التي عاشوها؟!

يستشرف ما خَلْف الجبال التي تَسُدُّ عليه آفاق الأرض والسماء، يَمَنًا وشامًا! تُرَى أيّ ناسٍ وراء تلك الجبال؟ وكيف تحيا الشعوب هنالك أو هنالك؟ وأين «مَقْطَع

التراب»، الذي طالما رَدَّدَتْ أُمُّه الإشارة إليه، حينما تُريد سَدَّ أمله في وصوله إلى شيءٍ أو وصول شيءٍ إليه؟ كم بُعده؟ وماذا بَعده، من عوالم مجهولة؟

لقد كانت وطأة المكان بمحدوديَّته الجغرافيَّة بمثابة سِجْن يُلهب خيال الطفل وشوقه الجارف إلى التحرُّر من قضبانه الشامخة. كم ظَلَّ يحلُم بريش طائرٍ يحمله جناحاه مع تلك الطيور المسافرة بلا حدود إلى حيث شاء! قالوا إنه، قبل أن يعي شيئًا، طار! تَتَبَّع خطوات دِيْكِ العائلة- تمامًا كما كان يتتبَّع خطوات أبيه- حتى سَقَطَ عن حافَّة أحد الأرياد. لكنَّهم ظلُّوا يُعَيِّرونه بأنه طار مع الدِّيْك، جهلًا بالفرق بين قدراته البشريَّة ومواهب الطَّير!

ولمـَّا لم تكن رحلاتُه المحدودة مع أبيه تحقِّق له الارتواء المتخيَّل، فقد كان وإخوته يحوِّلون قِصَص أبيهم إلى مسرحيَّات صغيرة، يتوزَّعون فيها أدوار الشخوص الذين

تضمَّنتهم القِصَّة التي رواها الأب؛ ولذلك كان دور الأب حاضرًا في كلّ مسرحيَّة. هكذا كانوا يصنعون عالمهم، في زمنٍ لا تلفزة فيه، ولا حتى مسرحًا مدرسيًّا. ولم تكن تخلو بعض تلك المسرحيَّات من نقدٍ اجتماعيٍّ ساخرٍ، يمسُّ الشخصيَّات العامَّة، ومنها شخصيَّة القاضي، والشيخ نفسه، وهو أبو وليد الأعلى. أي أنها قد تتجرَّأ طفولتُها على نَباريس السُّلُطات الثلاث: التشريعيَّة، والقضائيَّة، والتنفيذيَّة.

يَبدؤون توزيع الأدوار بعبارة تقليديَّة، وهي «زَعم»، إشارةً إلى أن الأمر «زَعْمٌ» وتخييل، وتمثيل في تمثيل:

- «زَعم» أنتَ الشيخ، وأنا أبي «زَعم»، وأنتَ فلان، وأنتِ فلانة...

وتستمرّ المسرحيَّة، تراجيديَّةً كانت أو كوميديَّة!

الفصل السابع

تَحوُّلات الجبال، التي كانت تَحوُّلات الأسماء أحد تمظهراتها الرمزيَّة، مثلما كانت استشرافات وليد لمعرفة المجهول وراء الجبال أحد بشائرها في الجيل الجديد، كانت إرهاصاتها قد ظهرت منذ طفولة أبي وليد نفسه، كما حكَى لأبنائه عنها. كما أن شغف وليد بالرِّحلة قد امتدَّ آفاقًا لا حدَّ لها، تستشرف المستقبل، بعد أن سَمِعَ بقِصَّة ذلك الرحَّالة الإنجليزي الذي اخترق العالَمَ ليزور جَبَلَه منذ سنين، قبل أن يزورها ذوو القُربَى والجوار!

- لقد تَمَّ لأوَّل مرَّة افتضاض العُذريَّة الأُولى للجبال... (حدَّثه أبوه).
- كيف حَدَثَ ذاك؟ (يسأل وليد).

- حَدَثَ في تلك السنين حَدَثٌ جَلَلٌ هَزَّ من الجذور قناعات الجبل بالشموخ والاستقلاليَّة عن العالَم. ففي تلك السنين زارنا زائرٌ غريبٌ اسمه (ثِلْبِي)، وهو نصرانيٌّ يدعونه أحيانًا عبدالله ثِلْبِي. أقام أيَّامًا، وكان لاستقباله، واندهاش الناس لشكله، ولباسه، وتصرُّفاته، وأجهزته التي جَلَبَها معه، وبخاصَّة «الراديو»، صدى هائل في نفوس الناس وعقولهم وخيالهم، حوَّلوه بعد حين إلى ما يشبه الأساطير. كانوا يعتقدون أن الأصوات المنبعثة من مذياعه ليلًا هي أصوات جِنّ. تارةً تتحدَّث، وتارةً تغنِّي، لا اللغة مفهومة، ولا الغناء مألوف! لا بُدَّ أن الرجل يستحضر الجِنَّ ليلًا ليتآمر معهم على الجباليِّين ثُمَّ يصرفهم نهارًا بعد أن يكونوا قد رَسَمُوا له الخطط! لم يَكْفِه أن غزاهم بنفسه حتَّى

جيَّش عليهم كَفَرَةَ الجِنّ أيضًا إلى عُقْرِ دارهم!
ذلك ما لا يُمكن السكوت عنه! وللقوم خبراتهم
في التعامل مع الإنس والجنّ، على كلّ حال؛ فسَرَوا
ليلًا ليُبيِّتوه، لولا أن تلك الأصوات كانت من
الغرابة بحيث حملتْهم على التراجع، راضين من
الغنيمة بالإياب؛ فجِنّ إنجلترا غير ما ألفوا من
الجِنّ المحليِّين!

...

نعم، لقد كان الأمر حسب الحكايات التي تناقلها الناس، عبر جِيْلَي أبي وليد ووليد، مزيجًا من الإعجاب والخوف والرفض لهذا القادم الغريب الذي هبط على الجبل، وكأنه آتٍ من كوكبٍ آخر. وقد عَلِم وليد فيما بعد بسنين أن ثِلْبِي الذي شاع اسمه، وحكى له أبوه خبره، وانتشرت أقاصيص زيارته بين الناس، لم يكن سوى المستر هاري

سانت جون بريدجر فِلْبِيْ Harry St. John Bridger Phillby، الرحالة الإنجليزي المعروف، الذي قيل إنه كان قد أسلم وتسمَّى باسم عبدالله.

عاد وليد ليحكي لأبيه ما كتبه فِلْبِي عنه وعن الجبال وعن قومه، وما صَوَّره إذ ذاك من مظاهر استقبال الناس إيَّاه. وهو ما صار مثار دهشةٍ أخرى للجيلَين اللَّاحقَين، جيل وليد وجيل أبيه، وهم يشاهدون صُوَر أسلافهم، ويتمارون في أصحابها، كما يتمارون فيما نقله الرجل عنهم من أخبار، بين مصدِّق ومكذِّب.

- قُل لنا، ماذا قال ثِلْبِي، يا موسى؟ (يسأل الأب ابنه).

- كلَّ خير..

- قُل لي بالتفصيل.. إنِّي لأذكُر اليومَ، يومَ أن غزانا ذلك النصراني.. فخرج الناس لاستقباله، وهم لا يلوون على شيء، ولا يدرون بشيء من أمره وأمرهم.. سوى أنه ضيف الجبل.. والضيف واجب الإكرام أيًّا كان.. وما دام شيخ الشمل قد نَدَبَهم إلى ذلك فلا مندوحة في أن يلبُّوه!..

- هل شهدتَ ذلك، يا أبتِ؟

- كنت صغيرًا.. لم يسمح لي أبي بالذهاب معه.. لقد توافد الناس من أعالي الجبال وأسافلها، «مثل الجراد المنتشر»، للترحيب به وحَمْل متاعه.. وما كانت مثل هذه التجمُّعات مأمونةً دائمًا بين الناس، فضلًا عن الأطفال. لذلك ذهبتْ التماسات أُمِّي كي يأخذني أبي معه لمشاهدة الاستقبال أدراج الرياح. لكنّ أخبار ذلك اليوم لم تذهب أدراج

الرياح، فلم يَبْقَ بيتٌ إلَّا حكى حكايةً عن الزائر الغريب. واليوم يَوَدّ كلّ بيتٍ أن يسمع حكاية ذلك الرجل عنَّا وعن ديرتنا...

- بالتفصيل؟
- بالتفصيل المُمِلّ!.. فكلُّ كلمة تحمل تاريخًا، وكلّ وصفٍ يحمل ذكرى.
- كتب، يا أبي، قائلًا: ...

وجعل وليد يقرأ على أبيه ما ترجمه عمَّا كتبه مستر فِلْبِي وهو يصف رحلته الجبليَّة، والأب يستوقفه بين مقطعٍ وآخر ويناقشه.

هذا ما كان من شأن زيارة المستر فِلْبِي للجبال، وما أحدثته من بذار التساؤل والمقارنة في عقول الجباليِّين وقلوبهم. على أنه كان يُرضي ضميرهم الجمعي بعد ذلك

التاريخ- ثُمَّ بعد ما توالَى تكشُّفه لهم عن الآخَر والعالَم المعاصر- أن يَتعلَّلوا بتلك المقولة المأثورة، التي اصطنعها لهم عبقريٌّ قديمٌ في تخدير العقول والنفوس: «أعطاهم الله حكمته، وأعطانا جنَّته!». يزدردونها قبل النوم، ثُمَّ يردِّدونها حينما يُصبحون، إزاء ما يشاهدون من تخلُّفهم وتقدُّم الآخَرين.

نعم، لم تكن رحلات وليد المحدودة مع أبيه تحقِّق له الارتواء المتخيَّل، فكان يعوِّض ذلك بالخيال السارح وراء الحكايات والأساطير من الماضي، ثُمَّ بما يحوِّله وإخوته من قصص أبيهم إلى مسرحيَّات، يتوزَّعون فيها الأدوار. حتى كانت قِصَّة فِلْبِي ورحلته، فإذا خيال الصبيِّ يتحوَّل من الماضي والأساطير إلى المعاصر والمستقبل، أو لتقُل، للحقِّ، إنه في تلك المرحلة من العمر كانت تتداخل عليه خيوط الماضي بخيوط الراهن والآتي في نسيجٍ واحد.

كذا كانت نشأة وليدٍ في الجبل. كان أبوه من أهالي الجبل، فيما أُمُّه من إحدى الفروع الجباليَّة المجاورة، ذات العلاقة النَّسَبيَّة بالقبيلة التي ينتمي إليها الأب، اسم ذلك الفرع بنو ساعدة، ويُعرف جبلهم بجبل بني ساعدة.

لقد تَشَرَّبَ وليد تراث (الجبل/ الأب) من والده حتى سِنِّ العاشرة. إذ غادر الدِّيْرَة إلى المدينة ليُكمل دراسته، منقطعًا عن الدِّيْرَة ببدنه، وإنْ لم ينقطع بعقله وروحه. نادرًا ما كان يزورها، ولأَيَّام معدودات، وكثير من الأحاديث التي تزوَّد من خلالها بتراث الدِّيْرَة كانت ممَّا حكاه له أبوه حينما كان يزوره في المدينة.

كان وليد، كما يصفه الناس، طُلَعَة منذ طفولته. هذه الكلمة التي سمعها لأوَّل مرَّة في مرحلة تعليمه العالي، وأدرك أنها تنطبق عليه بالفعل. كيف؟ لقد يذكُر من نفسه أنه ظلَّ شغوفًا بكُلِّ جديد، متطلِّعًا إلى الترقِّي والتغيير، على

الرغم من بؤس الحال. كان في مدرسته الأصغر سنًّا دائمًا، وكانت المشكلة تزداد لديه في الصفوف الأُولى؛ إذ لا مقاعد للطلاب وإنما يجلسون على الأرض المفروشة بالحنابل، (وهي نوع من البُسط)، أمَّا في الصفين الخامس والسادس، فكانت هناك كَراسٍ وطاولات.

حين دخل المدرسة الابتدائيَّة رأى لأوَّل مرَّة زِيًّا عجيبًا لم يَرَه من قبل. فمدرِّسوه غالبًا من بلدان الشام، ولاسيما من الأردن أو فلسطين، يعتمرون البَدْلات، الرائعة في عينيه الصغيرتين، البنطال والقميص والسترة.. ربما لم يشاهد ربطة العنق في تلك المرحلة. رأى ذلك الزِّيَّ الأنيق، البالغ النصاعة والنظافة مقارنة بما يلبس الناس إذ ذاك. ذلك الزِّيَّ المتعدِّد الألوان، الذي يختلف كلّ يومٍ عن سابقه. وهؤلاء البَشَر المختلفين، يُسرِّحون شعورهم بعناية فائقة. لهم بَشرة بيضاء، وهم فوق ذلك بالغو النظافة والنعومة،

تكاد تندَى أناملهم، وليست كأيدي أبناء بيئته، شَثْـنَةً كَزَّة! يا الله، ماذا يأكلون؟! لا بُدَّ أن لهم غذاءً مختلفًا كُلِّـيًّا عن طعامنا، من الخُبز اليابس، أو «الحَشِيْم»، كما يُسمَّى، والعصيد، وما شابه! ما أظنُّهم يأكلون إلَّا من المعلَّبات. وما هذه النظافة! حتى إن أحدهم ليصطحب منديلًا- قماشيًّا في تلك الحِقبة- في جيبه، فلا يمسح إفرازات أنفه في جدار، كما نفعل، فضلًا عن أن يبصق على الأرض، كما يفعل الناس هنا! وإنْ كان من المقزِّز حقًّا أن يحتفظ المرء بمخاطه وبصاقه في جيبه! إنه نموذج «العصر المنديلي» الحديث، شُغِفَ به الصبيّ، وأخذ يُحاكيه ويحلُم ببلوغ مرتبته. فيما لم يَلْحَظ هذا الإعجاب والتأثر على أترابه.

فلماذا؟

الفصل الثامن

ومَرَّت الأعوام، وتعثَّر الشيخ أبو وليد في أخاديد السنين. إنها الشيخوخة، وقد أخذتْه إلى أرذل العمر. فَقَدَ قواه وتسرَّبت ذاكرتُه، مصابًا بالألزهايمر، ذلك الداء اللئيم الذي دَمَّر ذاكرته تدريجيًّا، وهو من كانت ذاكرته حديديَّة، يلتقط المعلومات كآلة تسجيل، ويحكي القصائد المطوَّلات والحكايات التي لا تنتهي، كأنه كتاب مفتوح باستمرار، أو فيلم وثائقيّ لا ينضب معينه، فلا تُمَلّ مجالسه، ولا تُقاوم إثارة قِصصه. بات لا يعرف أولاده، ولا يذكر اسم امرأته، ولا يعي الزمان ولا المكان، على الرغم من أنه ظَلَّ يذكر القديم من الذكريات تمامًا كما كان من قبل. وسبحان مَن يُغيِّر ولا يتغيَّر!

أعياهم التَّداوي، «وما يُجدي مع الموتِ التَّداوي»!
وما هي إلَّا بِضع سنوات وانتقل الشيخ أبو وليد إلى جوار ربِّه.

تَفَرَّقتْ الأُسرة بعد رَبِّها، وسَلَكَ كُلٌّ في شِعاب الحياة مَسْلَكًا. إلَّا وليد، فقد بقي إلى جوار أُمِّه في بيت والده، بجبل آل شريف. وهو ما حدا بها- بعد تقسيم تركة الأب- إلى اقتراح أن تَلحَق بأهلها في بني ساعدة، فما ينبغي لأرملةٍ مثلها أن تعيش وحيدةً، منقطعةً مع فتًى غِرٍّ صغيرٍ، وهي ذات الحَسَب والنَّسَب.

وهكذا تَلحَق الأُمُّ بديار أهلها، لتُقيم مع وليد في قِسمٍ من أحد منازل أهلها كانت ورثته عن أبيها. وبذا أصبح ارتباط وليد بدِيْرَة أخواله أكثر منذ ذلك الحين. وإنْ كان يزور أعمامه بين وقت وآخر، وكذلك إخوته من امرأة أبيه

الأخرى. وكان قد ورث أرضًا وبيتًا صغيرًا من أبيه، ظلَّا مهملَين، بعد انتقاله مع أُمِّه للإقامة في ديار أخواله.

كان الفتى وليد، يوم تُوفِّي أبوه، في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية. وقد تأثَّر تأثُّرًا بالغًا بفُقدان أبيه، الذي كان يلازمه في كُلِّ خطواته مُذ كان طفلًا، لا كابنٍ فحسب، ولكن أيضًا كصديقٍ وتلميذٍ ومعجَبٍ بشخصيَّته المعرفيَّة والاجتماعيَّة الفَذَّة. كانت الظروف وقَلَق التحوُّلات التي مَرَّت به خلال تلك السنة كفيلةً بتهديد مستواه الدراسي، لكنه استطاع نيل الشهادة الثانويَّة بتفوُّق. ورُبَّ ظرفٍ قاسٍ يُفجِّر في الإنسان طاقاتٍ من التحدِّي تصقِل معدنه ليُضْحِي أَشَدَّ حِدَّةً في مواجهة الصعاب ممَّا هو عليه من حالٍ في أيـَّام الطمأنينة والاستقرار.

كان حُلم وليد أن يصبح طيَّارًا، ككثير من أترابه، لكن هَوَسه بذاك الأُفق المستقبلي ازداد مُذ حكاية امْحَمْ عُقَيْصَاء،

التي رواها له أبوه. فالتحق بكليَّة الطيران، وهذا ما فتح آفاقه- ولاسيما بعد تعلُّمه اللغة الإنجليزيَّة- على ثقافات العالَم. وكان منذ صغره نهمًا في الاطِّلاع وحُبِّ القراءة وخوض المغامرات.

وقد ذهب في أثناء دراسته إلى بعض دول العالَم الغربي، فقَضَى سنوات في المملكة المتحدة البريطانيَّة، وكندا، والولايات المتحدة الأمريكيَّة، وألمانيا، وبلجيكا، وإيطاليا، إمَّا لتلقِّي التعليم اللغوي والتقني، مبتعَثًا في مجال تخصُّصه، أو في دورات وزيارات. وتأثَّر خلال ذلك كلِّه بمشاهداته ومعايشاته أكثر ممَّا تأثَّر بدراسته. كانت الصورة النمطيَّة عن الغرب تُعشعش في جمجمته الشرقيَّة، حتى طَوَّف في تلك الديار. رأى الانضباط في العمل، والنظام، والتفاني في أداء المهمَّات. رأى التواضع الإنساني كيف يصنع عظَمة الإنسان. رأى قِيَـمًا فاضلة، وكان يتصوَّر تلك المجتمعات مجرَّدة من

القِيَم، أو هكذا لُقِّن منذ الصِّغَر. أعادته تلك الزيارات إلى رائحة أهله القدماء، ببساطتهم، وجِدِّيَّتهم، وتفاعلهم الاجتماعي، رجالًا ونساء، بعيدًا عن العُقَد والرِّياء أو خبث النفوس. كان، إذ يركب الحافلة، يعجب لهذا الشيخ الكبير في السنّ، نظيفًا في ملبسه، سمحًا في تعامله، مبتسمًا مع زبائنه، جادًّا في سلوكه، منضبطًا في مواعيده، يَصِل المحطَّة في وقته المحدَّد، وإنْ وَصَلَ أَبْكَرَ من موعده، انتَظَرَ حتى يحين موعد انطلاقه. وربما كان السائق مدخِّنًا، فإذا هو ينزل في المحطَّة في الفترة الفاصلة بين الوصول والانطلاق ليُداعب سيجارته، لا ليأكلها كما يفعل الناس في بلادنا، وينفثها في وجوه الآخَرين! وقد تكون السائقة سيِّدة، تُزاول عملها برجولة، أو هكذا بدت له، تذكِّره هي الأخرى بنساء بلده اللَّائي كان يشاهدهنّ في صِباه، عصاميَّاتٍ، قويَّاتٍ في شخصياتهنَّ، يَرتدن الأسواقَ والبَيْعَ والشراءَ والتخاطبَ مع

الناس في ثقةٍ واحتشام، ويبادلهُن الرجال الحديثَ والعملَ بإجلالٍ واحترام، ولسنَ كجيلٍ مُدجَّنٍ، تتعثَّر الفتاةُ منه في أطراف عباءتها، ولا تُحسِن نُطق كلمتين على بعضهما، وتَغرق في شبر ماء!

رأى ورأى ورأى.. وقارنَ وفاضَلَ. لا شكَّ أن المرأة في بلاده أشذَى وأغنَى أُنوثةً ونُعومةً من المرأة الغربيَّة، لكنها مستنفدَة الشخصيَّة، ترتجف من ظِلِّها العابر.

شَعَر في أمريكا وكندا وأوربا أنه عاد إلى أُمِّه وأبيه وأفراد مجتمعه إبَّان صِباه، ملامحَ وقيمًا، على الرغم من كُلِّ الفوارق.. عاد إلى الإنسان بفِطرته التي فَطره الله عليها، بصفائه وحُرِّيَّته ونقائه الداخلي لا المصطنع. ساءَل نفسه كثيرًا ما الذي حصل؟ ولِـمَ صار مجتمعه إلى ما صار إليه؟.. مَن الجلَّاد ومَن الضحيَّة؟ حتى كبار السنِّ لم يعودوا كما

كانوا؛ فقد مُسخت طبائعهم، وصاروا يُحاكُون قِيَمًا مبتدعةً كاذبةً، يتوارى فيها الصِّدق ويزدهر النفاق والرِّياء.

كانت تجربة وليد في بلاد الغُربة بالغة الغِنَى والتأثير. وكان لا ينغلق على نفسه، بل كان يسعَى إلى الانغلاق عن جماعته أو زملائه في تلك البلدان، لينغمس في المجتمع الجديد، ويتروَّى من معينه. حقًّا لقد أُعجِب بالإنسان أيَّما إعجاب.. بإنسانيَّة الإنسان، حتى في ضَعفه وطَيشه؛ لأنه إنسان، لا يكذب على نفسه ولا على مجتمعه مدَّعيًا الملائكيَّة.

واكتشف وليد موسى للمرَّة الأُولى أن الفضيلة ليست مظهَرًا، لكنَّها جوهر. وكانت مِن شواهد ذلك عِدَّة مواقف مَرَّ بها. منها أنه كان مَرَّة في إحدى الجامعات الأمريكيَّة يحمل خارطة الجامعة في يده ليذهب إلى أحد المواقع في الجامعة، وكان جديدَ عَهْدٍ بالمكان، وكان يُحِبُّ أن يَذرَع الجامعة سَيْرًا على الأقدام، يتعلَّم من مشاهداته وسماعه أكثر

ممَّا يتعلَّم في قاعات الدروس. إذا هو في إحدى الزوايا بكائنٍ غريب!

- ما هذا؟! (همس في نفسه)...

فتًى أم فتاة؟!.. لا أدري!

ملامحه ملامح ذُكوريَّة، وإنْ كان ذا أظافر طويلة، مطليَّة، وشَعرٍ طويل، وحَلَقٍ في أُذنيه، ووجهٍ ناعمٍ أُملود، ولباسٍ مُهلهَل. وهو سادِرٌ في حالةٍ، أشبه بحالة ثَمِلٍ، أو مَن استيقظ من حُلْمٍ لذيذ. لا يلتفتُ إلى أحد، ولا يُعيره أحدٌ أيَّ التفات؛ فكُلٌّ عنه في شغلٍ سائرون. قال وليد في نفسه:

- لو كان هذا في بلدنا، لتحلَّق حوله الصِّبية والسفهاء، كما كانوا يفعلون مع علي عيضة!

ماذا جاء بمِثل هذا إلى هنا.. في الجامعة؟!

تُرى أ هو طالب أم طالبة؟ أو ربما كان مدرِّسًا أو مدرِّسة؟ وما يُدريني، فقد يكون رئيس الجامعة!

كُلُّ شيءٍ هنا جائز... مِثل هذا يُعَزَّر في بلادي، ولا مكان له في المجتمع، ناهيك عن الجامعة!..

دعني «أتحركش» به، لأسبر غَوره، وأختبر استجابته لغريبٍ مثلي.

- Hi! Would you, please, help me to know where the historic hall is?

فما كان من ذلك الشَّبَح الغريب إلَّا أن ابتسم في وجهي، وانتصبَ ناهضًا من مكانه، وبمُنتهى الأدب والذوق أَخَذَ يشرح لي بالتفصيل مكان القاعة التاريخيَّة، التي لم أكن أبغيها أصلًا، وإنما كنتُ أبغي أن أُجري حديثًا معه لأستطلع ردَّة فعله.

ولَمَّا ذهبتُ في غير الاتِّجاه الذي وَصَفَه لي الشَّبَح، إذا بي أُفاجأ به قد لَحِقَ بي على مسافة من المكان:

- سيِّدي.. سيِّدي.. ليس من هذا الطريق، وأعاد وَصْفَ المكان لي مرَّة أخرى.. حتى ضَجِرْتُ من اهتمامه، واضطُرِرْتُ إلى المُضيِّ في الاتِّجاه الذي

شرحه لي، شاكرًا، حتى أتوارى عن ناظرَيه، وإلَّا فإنه سيلحق بي، وربما صحبني إلى المكان المقصود!

وتفجَّر حينها في رأس وليد- كما ذَكَرَ في مذكِّراته- السؤالُ الأخلاقي: لماذا في بلادي يُعِيرون الشكلَ والسلوكَ الظاهريَّ جُلَّ الاهتمام، إنْ لم يكن كُلَّه؛ فيَحْمِلُون الناس حملًا على الرِّياء، والنفاق، والتظاهر، وهُم داخليًّا خواء من الفضيلة والأخلاق؟! إنَّ سلوك ذلك الرجل/ المرأة، الذي قد يكون من جماعة الهيبز أو البانك أو الشاذِّين المثليِّين، أرقَى ألفَ مرَّة من سلوك شيخ القبيلة لدينا أو شيخ الجامع! ما الذي يجعل مِثل هذا المخلوق مُـخلِصًا في هِدايتي سواء السبيل، فيما أنا أنظر إليه- بحسب مسلَّماتي القيميَّة- على أنه ضالٌّ مُضِلٌّ وشيطانٌ رجيم؟! لقد كنتُ مُشْتَبِهًا في عقله وأخلاقه، أُقدِّم رِجلًا في مخاطبته وأُؤَخِّر أخرى؛ رُعبًا من

شكله ووَجلًا من الاقتراب منه، وإذا هو بكُلِّ هذا اللُّطف والنُّبل؟!

إنها فلسفة أخلاقيَّة مختلفة، إذن، لا تَناقض فيها بين ممارسة الفرد حُرِّيَّته الشخصيَّة والتزامه في الآنِ نفسه بالعَقْد الاجتماعي مِن القِيَم والمُثُل العامَّة. إنها التربية الاجتماعيَّة، التي تحكمها القوانين، التي لا مُحاباة فيها ولا محسوبيَّات، ينشأ عليها الإنسان هنا وهو يعرف ما له وما عليه، ويُدرِك حدود مسؤوليَّاته، التي إنْ تخطَّاها طُبِّق عليه القانون كغيره من الناس، فإذا القانون يتحوَّل إلى أخلاق ذاتيَّة، وإلى ضميرٍ حيٍّ، مَن شَذَّ عنه شَذَّ في العار القيمي والعقاب القانوني.

أعتقد أن هذه المدينة على مشارف المدينة الفاضلة التي حلُم بها أفلاطون.

كلَّا! فلكُلّ قاعدةٍ شواذّ، ولكنَّ وليدًا رأى مَن قد يُعَدُّون من الشواذِّ هنا ملتزمين بالقاعدة أيضًا، طوعًا أو كرهًا!

لا، الحقّ لقد رأى بعض هؤلاء الشواذّ الشواذّ، الذين ما زال التوحُّش في نفوسهم والعنصريَّة في صدورهم. غير أن هؤلاء حَطَبُ النظام العامّ والقوانين الصارمة. وكُلُّ إنسانٍ هنا عصا القانون؛ فما دام يَعرف حقوقه وواجباته، فلا يستطيع أحدٌ أن يبتزَّه أو ينال من حقوقه، مهما كان ضعيفًا، أو بَلَغَ حجمُ خصمِه عُلُوًّا.

أ هو الانبهار بالغرب، الذي طالما سمع وليد موسى التحذير منه قبل مجيئه. ومَن لا ينبهر بالجمال، والعدالة، والمساواة، والنظام، وسيادة القانون، وإبداع الإنسان؟!

كان وليد موسى لا يقتصر على المجال المبتعَث للدراسة فيه، بل كان لا يدع نشاطًا معرفيًّا أو ثقافيًّا، عِلْميًّا

أو أدبيًّا أو فنِّـيًا، إلَّا تعلَّق بأهدابه، ممَّا كان يُؤخَذ عليه حينما يتغيَّب عن بعض الواجبات المفروضة عليه في حقل التخصُّص. على أنه لم يكن يؤدِّي به ذلك إلى تقصيرٍ في نتائجه إجمالًا، بل كان في أوائل الدارسين طيلة ابتعاثه حتى عاد إلى بلاده. وهو ما كان يجلِب عليه الإعجاب من زملائه، في شيءٍ من الحسد.

... ...

- مِلْ قليلًا.. ثُمَّ اهبط بهدوء... نعم، هكذا.. ممتاز!

(قال له مدرِّب الطيران البريطاني، وهو في السنة الأخيرة من دراسته ليصبح طيَّارًا مدنيًّا).

... ...

كُلُّ البشائر كانت تبتسم في وجه وليد موسى، تُهنِّئه بالتفوُّق النظري والتطبيقي، ودُنُوِّ التخرُّج طيَّارًا عملاقًا يمخر عباب الفضاء.

كم راوده حُلم ذلك اليوم!

ولكن يا للمفاجأة الصاعقة، في السنة الأخيرة من إعداده ليصبح طيَّارًا يفشل في تحقيق النتيجة المطلوبة، حسبما أُعلِم في كلِّية الطيران ببلاده!

كيف؟

وكُلّ التقارير، ونتائج التدريبات، والاختبارات الميدانيَّة، والدورات الخارجيَّة كانت تقول إنه سيكون.. وبجدارة؟!

لم يَبق أمامه، إذن، إلَّا أن يتحوَّل إلى مجال (هندسة الطيران Aeronautical Engineering)، كما قيل له.

- ستكون مهندس طيران ممتازًا!

- والطيران؟.. أقصد قيادة الطائرات؟

- ستمارس عملك في مجال الطيران، وربما تكون أحد طاقم الرحلة في بعض الطائرات والحالات.

وهناك بعض حالات تستوجِب وجودَك فيها لتأهيلك في فهم تقنية الطائرة وحُسن التصرُّف عند الطوارئ.

- تأهيلي؟ أنا لم أدرس تقنية الطائرة، أو الإجراءات المتَّبعة في ذلك عند الطوارئ! هذا يعني دراسة إضافية!
- طبعًا! عليك أن تدرس بعض المواد التكميليَّة أو التأسيسيَّة في عِلْم الطيران، أو بالأصحّ عِلْم الطائرات، مِثل عِلْم الديناميكا الهوائيَّة Aerodynamics، المتعلِّق بتصميم الطائرة الخارجي كالذَّيل والجناح وكيف تتمكَّن الطائرة من توليد قُوَّة الدفع اللَّازمة للإقلاع بسهولة.
- حتى لا يقع خطأ عبَّاس بن فرناس في تصميم ذيل طائرته، أو فشل جناحَي الحَمْ عُقَيْسْتَاء...

- ماذا؟ ماذا تقول؟!
- لا، كنتُ فقط أَتذكَّر جَدِّي وجَدَّ جَدِّي، وفشلهما في الطيران الذي أورثاني إيَّاه! ماذا أيضًا؟
- أيضًا، يا وليد، عليك أن تدرس عِلْمَ الاستقرار والتحكُّم Stability and Control، يعني دراسة كيفيَّة الحفاظ على الطائرة مستقرَّة تحت تأثير الهواء الخارجي والتحكُّم بها.
- يكفي هذا! باختصار، هذا يعني أنني سوف أغدو فنِّـيًّا لا أكثر، ولن أقود الطائرات؟!
- تمامًا. إلَّا في نطاق محدود.

هذا ما دفع بوليد موسى، وقد فَقَدَ حُلم العُمر في هذا المجال الذي عشقه، إلى رفض الاستمرار في الدراسة. وقد زَعَم في مذكِّراته- التي استقيتُ منها معلوماته هذه- أن

المحسوبيَّة وحدها كانت وراء حرمانه من تحقيق حُلمه، على الرغم من تفوُّقه على كثيرٍ من زملائه. فكان ثَمَّةَ آخَرُ يتفوَّق عليه، فيما لا يَدَ له هو في التفوُّق فيه، جاهًا ومالًا، فرَجَحَتْ كَفَّةُ ذلك الآخَر. إلى عوامل أخرى ذَكَرَها هو، كتابةً، أو حكاها لي، ولكني لا أتحمَّل مسؤوليَّة صِحَّتها، ولا أملِك سردها هنا.

- يا أخي، يستأهل؛ وليد مشاغِب... (قال لي أحد معارفه المقرَّبين منه).

- كيف؟

- كان كثير الجدال، ولا يُعجبه العَجَب.. لا يقتنع، ولا يرَى أحدًا أعلى مِن تحدِّي المساءلة والنقد، ولو كان من كبار أساتذته ومدرِّبيه.

- كيف عرفت؟

- أنا أعرفه شخصيًّا، وحكى لي أيضًا أحد زملاء دراسته في الكُلِّـيَّة عن سلوكه وتعجرفه. حتى إنهم كانوا- كما قال- يلقِّبونه بـ«الفَهَّامة»: «الفَهَّامة راح.. الفَهَّامة جاء»!

- هذا ثناء عليه.

- كانوا يقولونها طبعًا في مداعبة، لا تخلو من تهكُّم.

... ...

الفصل التاسع

بعد سنوات الدراسة الطويلة والمضنية، عاد وليد موسى بخُفَّي حُنَيْن إلى القرية، التي لم يَزُرْها خلال دراسته. عاد إلى ما كان يَعهده قريةً من قبل، فقد صارت اليوم شيئًا آخر، لا قرية ولا مدينة. كُلُّ شيءٍ قد اختلف عمَّا كان يَذْكُرُه وهو صَبِيّ. عاد متردِّدًا على الجَبَلَين، جَبَل الأُمِّ وجَبَل الأب، حيث لم يُعجبه الحال في الجبال، ولا الافتضاض الطارئ لعُذريَّة الأرض والإنسان والطبيعة. كان يَحِنُّ إلى أَيَّام صِباه، وحكايات أبيه، والطبيعة الغنَّاء التي كانت تُحيط به. لكن هيهات، فالأرض لم تَعُد تُزْرَع، فقد هجرها أهلوها، والجَوُّ أصبح ملوَّثًا بعادمات السيَّارات، والعُمران صار يُغطِّي ملامح الجمال الأخضر في الجبال بقِلاع من الإسمنت الملوَّن في غير انتظام، فلا هو أَبْقَى على جمال الطبيعة، ولا أخذ

بذوقٍ جماليٍّ في العُمران. حتى الطيور التي كان يعرفها صغيرًا غادرت البلاد، والنباتات والزهور التي كان يرتع بين أغصانها وأطيابها ماتت واندثرت. أمَّا قلوب الناس فمسَّها ما مَسَّ غيرها من تَيَبُّسٍ وشَتات. بيئةٌ من الضوضاء والفوضَى، لم يَجِد ما كان يَنشُده من حضن الأُمِّ الدافئ الآمن الشذيّ.

فكانت تلك الحياةُ الكالحةُ في الجبال صدمتَه الثانية بعد صدمة الفشل في تحقيق أحلامه الطائرة. ولكن الأيَّام ما تَنفكّ حُبلَى بالمفاجآت الصادمة. فما كاد يمكث أيَّامًا حتى توعَّكتْ صِحَّة والدته. تلك الأُمّ التي لم تَشْكُ في حياتها مَرَضًا، تَمْرَض لأوَّل مَرَّة مَرَضًا يُلزمها الفِراش. إن للعمر أحكامًا، لكنَّها ليست بكبيرة كثيرًا، وإنَّما نَيَّفت على الستين بِبِضع سنوات.

كان لا بُدَّ أن ينتقل لعلاج أُمِّه إلى مدينة جُدَّة، بعد أن يَئِسَ من علاجها في مكانٍ أقرب، وتارةً كان يُسافر بها إلى الرِّياض، حيث الإمكانيَّات الأفضل للعلاج والرِّعاية الطبيَّة. كانت الفاجعة أن اكتشف الأطبَّاء في المستشفى الألماني السعودي أن لدى السيِّدة الوالدة حالة سرطانٍ «متأخِّرة» في الكَبِد. وأُحبِطت كُلّ مساعي وليد للعثور على بصيص أملٍ في الشِّفاء، إنْ في الداخل أو في الخارج، فحالتها- كما قيل له- لا أمل في شفائها في أيِّ مكانٍ في العالَم، ولم يَعُد للطِّبِّ مجالٌ للتدخُّل. فكانت صدمة وليد صدمات، عاش عليها كليمًا حزينًا محطَّم الأعصاب، يقضي الوقت كُلَّه في رعاية أُمِّه والتخفيف عنها وهي تجود بأيَّامها الأخيرة؛ إذ لم تلبث إلَّا قرابة ستة أشهر وودَّعت الحياة.

سافر بعدها إلى الخارج لسنوات، لا يدري كيف انقضت، سافرَ تائهًا يرسف في الفشل والضَّنَى والحَزَن. كان

يحلُم أن يرى العالَمَ كُلَّه، أن يعرِف العالَمَ كُلَّه، أن يخلع عباءة بيئته، فيغترب ليتجدَّد، لعلَّه يستريح من صراعه المجتمعيِّ والثقافيِّ الذي بات يحرق أعصابه، ويُمزِّق عقله، ويُقِضّ مضاجعه.

كان يحلُم أن يرى نساء أُخريات- إنْ كان أصلًا قد رأى نساءً من قبل في بلده؛ ففي بلده لا يرى الرجال غالبًا سوى الرجال- مع إيمانه، بالغيب، أن نساء بلده هُنَّ أجمل النساء. حالُ النساء في بلده، على كُلِّ حالٍ، أَهْوَنُ من حالهنَّ في بُلدان أخرى قرأ عنها، أَشَدّ فَتْكًا بالنساء وشَيطنةً لهُنَّ، كأفغانستان، حيث الشِّعار الشعبي المرفوع هناك: «الموت للمرأة، ثُمَّ لأمريكا»! هنالك جرَى ذات يوم الحرق لوجه (شمسيَّة حسيني) وشقيقتها، وهما في طريقهما المُوحِل إلى مدرسة الفتيات، فالمدارس، بحسب هذه الثقافة، لا تعدو أن تكون أوكار بغاء أو تهيئة له! حَدَثَ ذلك من قِبَل مُسلمٍ

غيورٍ- جزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين وثبَّته!- كان يركب درَّاجةً ناريَّةً قديمةً، فمَـرَّ بهما وسألهما:

- «ذاهبتان إلى المدرسة؟»
- «نعم!».. أجابتا بكُلِّ ثقةٍ وبراءة، ظنًّا أنه بفعلهما معجب!

فما كان منه إلَّا أن كشف برقعيهما، وألقَى على وجهيهما مادَّةً حارقةً، ومضى في جهاده المبارك يحلُم بالحُور العِين!

كان وليد يَوَدُّ أن يرى خَلْقًا آخَر مِن خَلْق الله، أطعمةً أُخرى، نكهات مغايرة، عُقولًا جديدة. لقد سَئِم الحياة والأحياء هنا، ﴿ومَنْ يُهَاجِرْ في سَبِيْلِ الله، يَجِدْ في الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وسَعَة﴾، كما جعل يُردِّد على نفسه، وعلى سائليه هذه الآية من (سورة النساء). وكُلُّ سبيلٍ هي «في سَبِيْلِ الله»، ما دامت ليست «في سَبِيلِ الشيطان»!

كان يَذرع الشوارع في لندن، وباريس، ونيويورك، بلا هدف ولا غاية. عيناه زائغتان. ربما تلقَّفه بعض السُّكارَى أحيانًا أو المتشرِّدين ظنًّا أنه ثَرِيٌّ أو مجنون، فناله منهم الأَذَى أو المضايقات.

عاش رحلةً من الشَّكِّ في كُلِّ شيءٍ، واليأس من كُلِّ شيء. ولولا بقيَّة من إيمانٍ وعقلٍ، لانحرفت به السبيل أيَّما انحراف. جَرَّب بعض حياة الليل أحيانًا، والنساء، فمَلَّ وازدادت همومه، ونبا مِزاجُه. لم يكن قد شَرِب الخمر في حياته، لكنَّه أُغرِيَ بذلك مَرَّةً في لندن، وهو يدخل أحد المراكز التجاريَّة لشراء بعض الطعام، فرأى لأوَّل مَرَّة تلك الصفوف الجذَّابة من ألوان الشراب، ببريقها السافِر وألوانها المستفزَّة لعربيٍّ ومسلمٍ، يزيده عاملُ التحريم إغراءً، وباعثُ التهويل جَذْبًا إلى اكتشاف الحقيقة في ذلك العالَم الخرافي المحظور. اشترى زجاجة نبيذٍ أحمر، لم يعرف ما نوعها، ولا

ما مذاقها، غير أن شكلها أعجبه. لَفَّها، وهو يَتلفَّت بقلقٍ يَمنةً ويَسرةً، ولم يُصدِّق أنْ دَفَعَ الثمنَ وأسرع إلى سيَّارته، مُنطلِقًا بها إلى ذلك النُّزل المتواضع في أحد شوارع المدينة. كان يَشعُر أن ثَمَّةَ مَن يُراقبه ويَحسب عليه خطواته. كان يُحِسّ أنه بفعله ذاك يرتكب جريمةً لم يخطر في باله أنْ سوف ينزلق إليها يومًا. أسرعَ إلى شقَّته، مضطربًا، تَرْجُف يداه، حتى كاد أن يُسقط الزجاجة، ولم يعرف كيفيَّة إدخال المفتاح في أُكْرَةِ الباب لتوجُّسه الشديد وتلفُّته.

تناول عشاءه وهو يرمق ضيفته الجديدة. وكان قد أحضر الكأس والزجاجة على إحدى الطاولات، محاكيًا ما كان يشاهد في بعض الأفلام السينمائيَّة. وما أن انتهى من عشائه، حتى فَرَغَ للذَّته الموعودة بلهفة.

فَضَّ خاتمَ الزجاجة، لكنه فُوجئ بقطعةٍ من الفلّين قويَّةٍ محشورةٍ بإِحكامٍ في عُنق الزجاجة. كيف يفكُّها؟ حاول

بكُلِّ طريقةٍ، لم يستطع. حتى كاد أن يكسر الزجاجة ليصل إلى سالفة السُّلافة التي لم يذقها بعد، ويبدو أنه لن يذوقها! زادته تلك الزجاجة جُنونًا على جُنونه، وتَعَبًا على تَعَبِه، فما اسْطَاع أَنْ يَظْهَرَها وما استطاع لها نَقْبًا! تُرَى كيف يفتح الناس هذه الزجاجات؟! ولماذا يَحشرون هذه القطعة المتخشِّبة اللَّعينة في عُنق الزجاجة؟ أصبح أمام تَحَدٍّ، وهو يُسائل نفسه تلك الأسئلة، إمَّا هو في تلك اللَّيلة اللَّيلاء أو تلك الزجاجة العجفاء! قَرَّرَ، بعد قرابة ساعةٍ من المحاولة والفشل لفكِّ الزجاجة وإخراج سدادة الفلّين باللِّين و«بالصَّلاة على النبي»، أن يُجرِّب معها العنف! فأحضر من المطبخ سِكِّينًا صغيرًا، وأخذ يقطِّع تلك الفلّينة الخبيثة، ويحفر في جزئها الغائر من عُنق الزجاجة. وبعد لَأْيٍ استطاع أن يَثْقُب ثقْبًا صغيرًا فيها يُفضي إلى الشراب. حاول أن يَسكب شيئًا في الكأس، فلم يُفلِح، وجُنَّ جنونه، وتحوَّلت

ترتيبات السهرة الانفراديَّة إلى فوضَى! حتى كاد يضرب الزجاجة على رأسه ويستريح! كان المتساقِط من الفلّين قد اختلط بالشراب في الداخل. واصلَ المحاولات، حتى اتَّسعت الفتحةُ المُنْجَزَةُ قليلًا، فرأى أن يتناول الشراب بالزجاجة مباشرة.

أخذ يتذوَّق طعم ذلك النبيذ العِنَبيِّ، مختلِطًا بقِطَع الفلّين، التي علِقت في حلقه، فإذا هو يبلع تارةً، ويلفُظُ تلك القِطع المزعجة تارة. ويتفقَّد نفسه في أثناء ذلك، كيف يشعر؟ أين السَّكْرة؟ أين اللَّذة؟ أين النَّشوة التي تُقال في مثل تلك الحال؟

لا شيء حدث!

ينظر إلى وجهه في المرآة، يتفرَّس في ملامحه.. يتحدَّث إلى نفسه، هل يَلحظ ثِقَلًا في لسانه؟

كلَّا!

تناول كتابًا، هل يَجِد اختلالًا في فهمه؟

لا!

ظَنَّ أن ما تناوله عصير فاكهة ولم يكن خمرًا، أو لم يكن كافيًا لوصوله إلى تلك الحالة المشتهاة. فشَرِب وشَرِب، حتى استفرغَ الزجاجةَ بنبيذها وفلّينها في جوفه، واستلقَى على سريره!

ما هذا الذي يحكونه عمَّا تفعله الخمرةُ بالعقول؟

لم أتأثَّر!

لم يتأثَّر عقلكَ، يا وليد، ولم يفرح قلبك!

لعلَّ عقلي من القُوَّة غير العقول، بحيث لا تؤثِّر الخمرةُ فيه؟!

وبينا هو في أفكاره تلك، ذهب في سُباتٍ عميق. استيقظ بعد ساعةٍ على شعورٍ بالغٍ بالرغبة في التبوُّل. ذهب إلى دورة المياه يترنَّح، وكأن على عينَيه غشاوة من غَمامةٍ أو

دُخانٍ، يكاد لا يميِّز رؤية الأشياء، فأدرك أن ذلك بسبب ما شَرِب.

لكن.. أ ذلك كُلُّ شيء؟

وما الفائدة؟ ما الممتع في ذلك؟

عاد إلى فراشه، ولم يستيقظ إلَّا ظهيرة اليوم التالي على صداعٍ وبقايا دُوَار.

ما زال يتساءل بينه وبين نفسه:

لِـمَ يشرب الناس الخمرة؟

أ في الدُّوار لَذَّة؟

أم في مجرد النوم متعة؟

وهذا الصُّداع «الفَضِيْع» الفَظِيْع، أ هو ما يشتهون؟

يا للسَّفاهة، بل يا للحماقة!

لقد كنتُ قبل هذا أَسْعَدَ منِّي الآن، وأكثرَ صفاءً ومُتعةً بالحياة. لكن ما يُدريني لعلَّ النوع الذي تناولته ليس من تلك الأنواع القَوِيَّة المفعول، المـُحْدِثة خمارَها المذكور؟!

تناول إفطاره بسرعةٍ وبشهيَّةٍ مُقْهِيَة مُقْفِيَة. ليكتشف وقد ذهب إلى سيارته- تُراوده نفسه إلى تجربة نوعٍ آخَر من الشراب غير الذي كان البارحة- أنه كان، لعجلته واضطرابه صحبةَ (أُمِّ الكبائر) إلى شقَّته، قد نَسِيَ أن يُطفئ إضاءة السيَّارة! وأن ذلك قد استفرغ الطاقةَ من بطاريَّة السيَّارة، كما استفرغتْ سهرتُه طاقةَ بطَّاريَّته هو، فلم يستطع تشغيل السيَّارة. ودَخَلَ في فيلمٍ جديدٍ ذلك النهار البارد من أيَّام لندن، حتى سُحِبَت سيارته المستأجرة، واستأجر سيارةً أخرى. وكانت تلك أُولَى نتائج زجاجته الملعونة، كما حدَّث نفسه، مُبَكِّتًا.

كان يَشعر أن الوقت يمُرُّ بطيئًا في تلك الرحلات، وأيَّامه تمضي رتيبةً متشابهة. وكانت نُقوده تتطاير هنا وهناك. فاضطرّ إلى ترك السيَّارة التي كان يدفع أُجرتها الأسبوعيَّة مع التأمين، في حين أن مشاويره لا تعدو ارتياد بعض الأسواق والمطاعم والنزهات القريبة، وربما بَقيتْ السيَّارة دون استعمالٍ في بعض الأيَّام. ما هذا البذخ؟! قَرَّر التخلِّي عن مطيَّته، وامتطاء الحافلات مع خلق الله!

أمَّا النساء، فعَرَفَ فيهنَّ النُّبل والذكاء تارةً، والمَكر والغباء أُخرى. غير أنه كان يكتشف أنَّهنَّ في الغالب أَنبل من الرِّجال وأَوْفَى بمراحل. وأنَّهنَّ منهم أَرقَى، وبطبعهنَّ العاطفيِّ أَمْيَلُ إلى الخير والإنسانيَّة. تعلَّم منهنَّ الصبر، والمثابرة، وإرهاف الحواس، والتَّغَلْغُل في المشاعر. لم يُضاجع واحدة منهنَّ قط. وحين هَمَّ بذلك مرَّةً، في أحد البلدان التي جال فيها، استيقظَ حِسّه الاجتماعي، ووَكَزَه ضميره

الأخلاقي، فدَفَعَ لصاحبته أضعاف ما كانت تنشده؛ لأنه أدرك أن الحاجة هي أُمُّ فساد المرأة الاجتماعي والأخلاقي. وذلك ما أبكاها وأبكاه، فأكبرتْ فيه نبيل مشاعره، وأحبَّته مذ ذاك حُبًّا حقيقيًّا، صارت تدعوه حُبًّا أخويًّا؛ إذ لا مجال بينهما إلى غيره. وتحوَّل ما بينهما إلى محاولةٍ من قِبَله لانتشال تلك الفتاة الجميلة من حياتها، فنجح- كما تَصَوَّر- في قلب اقتناعاتها، لكنه لم يستطع بطبيعة الحال تأمين حياةٍ كريمةٍ لها تُغنيها عن ابتذال نفسها لعالَمِ الذكورة الظالم ونزواته النزِقة، وإنْ ظَلَّ الأملُ أن ذلك ما سيتحقَّق لها مستقبلًا، بما خُيِّل إلى وليد أنه قد أفلح فيه من استرداد دماغها المستلَب إلى مقرِّه.

... لقد كانت تجاربه في تلك المحطَّات الفاصلة من حياته تجاربَ إنسانيَّةً ثريَّةً، رُغم كُلِّ شيء.

الفصل العاشر

وفي بعض ترحُّلاته كانت الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. بلد الحُرِّيَّة وتِـمثالها العملاق. بلد الحُلْم، الذي طالما راوده.

كان مشتاقًا للتعرُّف على «دِيْرَة» العم سام. ولكن، يا لسوء طالعه، انكسرتْ نظَّارته وهو في الطائرة من لندن إلى هناك! سقطتْ، وهو نائم، فدَعَسَ عليها حين نهض، غير منتبهٍ، فوصل إلى مطار نيويورك شِبه أعمى، يكاد لا يَرَى إلَّا محطَّ قدمَيه. يا لخيبة الأمل! كم كان متلهِّفًا لرؤية الحسناوات، والطبيعة، والحضارة! إلَّا أن ذلك ربما جعله أكثر انبهارًا بمَشاهد الوصول؛ لعدم تبيُّنه ملامح الأشياء تمامًا، ورسمه لها ملامح أخرى من تخيُّلاته. وقد قضَى قرابة أسبوع منذ وصوله في محاولة شراء نظَّارة بديلة؛ فهم هناك يَعُدُّون النظَّارة كالعِلاج، لا يُصرف إلَّا حسب وصفة طبيَّة

معتمدة. وكانت لديه وصفة طبيَّة من بلده، لكنهم في أمريكا لا يعترفون إلَّا بوصفاتهم. كان عليه إذن أن يُجري كشفًا جديدًا.

وهو يُطِلُّ من غرفته في نيويورك، بعد «عصر النظَّارة» الأمريكيَّة طبعًا، فيرى من زاويةٍ تمثالَ الحُرِّيَّة، ومن زاوية أخرى ناطحات السحاب، ويشاهد الناس في الشوارع، من كُلِّ الأجناس، في أَمْنٍ وانضباطٍ وحُرِّيَّةٍ، ساءل نفسه:

لِـمَ لا يُصبح العالَمُ كُلُّه دولةً واحدة هكذا، ويستريح من انقساماته، وحروبه، ما دام هذا النموذج الأمثل قائمًا وناجحًا؟! ما دام يُتيح الحُرِّيَّة والعدالة والمساواة بين البشر؟ فما آفة العالَـم إلَّا تلك الفروقات والاختلافات التي لم يوفَّق العالَـم للتوفيق بينها، فيقع الصراع باستمرار. أمريكا نجحتْ في هذه المعادلة. أحببنا سياستها أم لم نُحِبّ، فإنها، اجتماعيًّا وثقافيًّا، صاحبة التجربة الأنجح في التاريخ. نحن

نلعنها، ثُمَّ نرتمي في أحضانها، حيث لا نجد خيرًا منها في العالَم أجمع!..

«أمريكا هي الطاعونُ، والطاعونُ أمريكا...

لأمريكا سنحفر ظِلَّنا،

ونَشُخُّ مَزِّيْكا على تمثال أمريكا!»...

كما قال محمود درويش، وتَضُجُّ القاعة بالتصفيق! ولكن لم يجد الشاعر في النهاية ملجأً من طاعونه غير أمريكا! فما أسهل الكلام، و«الشَّخَّ» أيضًا، وما أصعب الواقع وشروطه!

ليس تمجيدًا لأمريكا، لكنه الاعتراف بالواقع، والتسفيه لـمَن يقتاتون على الكلام، ولا شيء يملكون أو يستطيعون غير الكلام... مِثْلنا، نحن العرب، إذ نتوهَّم أنه يمكن أن نُحرِّر فلسطين بطائرات القصائد، وبارجات القوافي!

كان يقول في نفسه:

آه لو سمع أهلُك وقومُك ما تُوَسْوِس به إليك نفسُك الأمَّارةُ بالسُّوء، لَلَعَنُوك أنت أيضًا، بل لربما كَفَّروك، أو خوَّنوك، على الأقل!

وهو يَعْبُر الشارع، أو يقف في محطَّة الحافلة، أو يَجول في الأسواق، كان يرى في كبار السِّنِّ هناك أباه وأعمامه وكبار القوم من أهله، يوم أن كانوا بصِدقهم وأصالتهم وجِدِّهم العتيق. ويرى في النساء أُمَّه وخالاته وقريباته، يوم أن كانت المرأة شريكة الرجل، جِدًّا، وثِقَةً، وإنسانيَّة. تُدهشه ابتساماتهم للصغار، وبشاشتهم في وجهه دائمًا، وتحاياهم الأنيقة، بلا عُقَد ولا أمراض اجتماعيَّة، خَبِرَها كثيرًا في مجتمعه، فيتذكَّر قول الرسول، الذي لم يفقهوا كلامه: «وتَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أخيكَ صَدَقَة».

إن الابتسام بين العُربان ضَرْبٌ من السفاهة، والضعف، والسُّخف! وكُلَّما علا المرءُ منزلةً، تَوجَّب عليه أن يتحلَّى بالعُبوس الدائم والتجهُّم المستمرّ، وإلَّا سَقَطَتْ مهابته بين الناس، فما الضحك أو حتى الابتسام من شِيَم الرجال العظام، بل هما للصِّبْيَة والنساء، ومَن في حكمهما! لذلك قلَّما يَذكر أنه رأى أباه يبتسم، أمَّا يضحك، فذلك مستحيل. بل كان ينهاهم عن الضحك، راويًا حديثًا عن الرسول نفسه الذي أَمَرَ بالتبسُّم يذكر أن «كثرة الضحك تميت القلب»!

يَتذكَّر- وهو يركب الحافلة مع ذلك السائق الزنجي العجوز، أو الرجل الأبيض المهيب، أو السيِّدة الوقور- بعضَ أفراد قريته، إذ كان الإنسان يفوح برائحة الأرض، والعمل، واحترام الذات والآخرين.

كيف، بربِّك، يَضَعُ المرءُ هنا حساب ركوبه في الحافلة بنفسه، دون أن يُدَقِّق عليه أحدٌ، وفي بلداننا يكسرون حافظات النقود الحديديَّة التي كانت قد وُضعت في بعض مواقف السيارات في الرِّياض، ويَنْتَـثِلُون ما فيها من نقود، إذ كانت هذه الفكرة الحضاريَّة قد طُبِّقَت عَبَثًا منذ أعوام، ففشلتْ فشلًا ذريعًا. إنها التربية الاجتماعيَّة، والقوانين التربويَّة، كما جَعَل يُحدِّث نفسه. كان يعرف أن أشقَّاءه العرب ربما كانوا الجنسيَّة الوحيدة هناك التي تستخدم ذكاءها لإيهام سائق الحافلة أنهم قد وَضَعُوا في الصندوق ما يجب أن يضعوه من نقود، حينما لا يملكون البنسات الكافية، أو حين يُحِبُّون توفير بعضها لمشاوير أخرى! كانوا يُقرقعون بها في صندوق النقود الخاصِّ بِحَقِّ ركوب الحافلة، لِيَظُنَّ السائق أنها قد وُضِعَتْ بالوفاء والتمام، فيتبسَّم في وجوههم بكُلِّ أريحيَّةٍ وثقةٍ، وربما بكل استصغار وسخرية!

ولقد سمع هناك أيضًا أن الاختبارات في المعاهد والجامعات ما كان يُتَشَدَّد فيها لمراقبة الاختبارات لمنع الغِشّ، حتى اكتشفوا أن أذكياء الطلبة العربان هم غَيْرُ مَن أَلِفوا من الطلبة من جنسيَّات أخرى، وأن لهم أساليبهم إلى الغشّ في الاختبارات، فجعلوا يَتَّخذون الاحتياطات الاحترازيَّة اللَّازمة والمراقبات المُشَدَّدة، على الطريقة العربيَّة المعروفة! وإنْ كانت تلك الطريقة العربيَّة لم تَعُد مطبَّقة اليوم في العالَم العربي كما كانت، فقد بات التواطُؤ بين الطلبة ومؤسَّسات التعليم على خير وجه، وتَمَّ التفاهم بين الطرفَين؛ لتحظَى البلدان العربيَّة بمخرجات تعليميَّة رائعة! فضلًا عن الشهادات الكبيرة المزوَّرة أو الوهميَّة، التي أصبحت تجارةً عربيَّةً وعالميَّةً لا تبور!

كانت تلك الأفكار تجول في رأس وليد وقلبه إزاء كُلِّ موقفٍ يبعث على المقارنة بين بلدان الكُفر والفُجور هذه وبلدان التوحيد والتقوى والورع، التي جاء منها!

ومع هذا، فما كانت اللَّوحة وَرْدِيَّةً بإطلاق، وما ينبغي لها أن تكون. ذات مرَّة اصطدم بجاره اليهودي، وربما كان صهيونيًّا، كما تَبَدَّى له لاحقًا. كان الجار يأنس إلى صاحبنا، ويُحيِّيْه دائمًا ويُمازِحه، حتى عرف ذات يوم أنه من الشرق الأوسط، وأنه عربيّ، فانقلب على عقبيه. لم يُدرِك صاحبنا سِرَّ ذلك التحوُّل، حتى استيقظ ذات نهارٍ على حديث لدى بابه بين جاره ذاك وجارٍ آخر، فسمع جارَه اليهوديَّ يعبِّر عن همجيَّة الفلسطينيِّين والعرب، وحينما استغرب مُحاوِرُه خطابَه الحادَّ ذاك، فاستفسر منه، أخبره أنه إسرائيليّ.

ومن الطريف أنه اصطدم بجاره الإسرائيلي مرَّة أخرى، ولكن في إحدى دورات المياه العامَّة! كان صاحبنا

يَتَوَضَّأ، فغسلَ رجلَيه في حوض المغسلة، كما هو المعتاد في بلده. وجاره المذكور في طَرَفٍ آخر ما ينفكّ يتمخَّط بعنفٍ على نحوٍ غريبٍ في حوض مغسلة أخرى. فلمَّا رآه يغسل رجليه في حوض المغسلة، استغرب، وأشار إلى أنه كان ينبغي عليه أن يستعمل لغسلهما مكانَ الاستحمام! كانت مفاجأةً لصاحبنا أن يعرف أن ذلك أمرًا مستقبَحًا هناك. فساءل الجارَ:

- «لكن تُرَى أيّهما أكثر قذارة موضوعيًّا غسول قدمَيَّ أم ما يخرج من فتحتَي أنفك الآن؟ ربما كانا متساويين على الأقل. فضلًا عن أنك تغسل فيها يدَيك من آثار أيِّ شيء، وربما غسلتَ فيها كلبك الصغير.. إلى آخره!»

فبُهِتَ الذي كَفَر! لكن صاحبنا ظَلَّ بعد ذاك، ولمناكدة جاره هذا، لا يكاد يراه حتى يسارع إلى الوضوء، وإنْ في غير

أوقات الصلاة، ليغسل قدمَيه أمامه، وهو يكاد يتميَّز غيظًا! فيما لم يكن يُظهِر غيرُه اكتراثًا للأمر. حتى لقد أَخَذَ يشكو سلوك صاحبنا إلى الآخَرين، فلم يُعِرْه أحدٌ التفاتًا.

ما كان، إذن، ليَحدث بينهما ما حَدَثَ لولا تلك الخلفيَّة السياسيَّة والإديولوجيَّة. وهما لو لم يكونا في بلدٍ يحكمه القانون، لوقع بينهما ما لا تُحمد عقباه. فالبَشَر هم البَشَر، في كُلِّ مكانٍ وزمان، لا يزالون مختلفين، متناكفين، ولا سبيل إلى إصلاح أمرهم، ورسم الحدود بين نزوعاتهم، إلَّا بالقوانين.

كان يملأ رئتَيه كُلَّ صباحٍ من رائحة المطر والعُشب والزهور. ويَتَذَكَّر هناك بالمقارنة شوارع بلده. شَتَّان بين رائحة الصباح هنا، التي تفوح كزجاجة عِطْر، محمَّلة بضروب النكهات من شتَّى النباتات، وبين روائح الصرف والغبار هناك!

أهو جَلْد الذات؟!

كلَّا، هي حقائق.

وأنْ يجلد المتخلِّف نفسه، معترِفًا بتخلُّفه، وعَفَنِه، وقِلَّة أدبه وعقله، فتلك أَوَّل خطوةٍ نحو التصحيح. فبُلدانِنا ليست بغير فسادها تصبح على تلك الصورة الشوهاء. حتى الله، حينما كَثُر فسادُ الذِّمم، وفسادُ الإدارات، قَطَعَ القَطْرَ عن ثرانا، وإذا أنزله، جاء بكارثة! إن للكون قوانين، إنْ صَلُحَ الإنسان، واتَتْه، واستجابتْ له، ودعمتْه، وإنْ فَسَدَ، زادت طينَه بِلَّة! ذلك لأن ﴿اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِمْ، وإِذا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءًا، فَلا مَرَدَّ لَهُ، وما لَـهُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال﴾.

أمريكا، بخلاف بريطانيا، بعثتْ في رأس وليد الكثير من الأسئلة، فكانت حياته فيها مخاضًا محمومًا من التأمُّل والنقد ومحاولة المراجعة والفهم. راودته تلك المجادلات

الذاتيَّة منذ هبط مطار نيويورك حتى غادر مطار واشنطن دي سي.

وكان وهو في مكتبة الكونجرس قد تَعَرَّف إلى سيِّدة جميلة في الأربعينيَّات تعمل أمينة أحد الأقسام في المكتبة. يذكر ذلك الصباحَ الغائمَ، وهو يحمل مظلَّته، يخضع للتفتيش أمام بوابة المكتبة. الصَّفُّ هنا صَفٌّ، لا مجال لما يُسمَّى «السقوط» لدى العُربان، أي أن يَسْقُط أحدٌ على أحدٍ ليأخذ دَوره، إنْ في صفوف البَشَر أو في صفوف السيَّارات في الشوارع. تلك ثقافةٌ لا يعرفونها هنا، للأسف! لذلك وَقَفَ في نهاية صَفٍّ طويل، حتى وَصَلَ أخيرًا.

كان يبحث عن كتابٍ فاستعان بتلك السيِّدة النَّصَف للعثور عليه. ليكتشف أنها من أصولٍ شرقيَّةٍ، وأنها روسيَّة الأصل، وفي جعبتها ثقافتان شرقيَّة وغربيَّة. دار بينهما الحديث شيئًا فشيئًا خلال زياراته للمكتبة، حتى أَنِسَ إليها

وأَنِسَتْ إليه. لقد أصبح وجهًا مألوفًا لديها، وكان قد داوم على الالتقاء بها في المكتبة؛ لا لما وَجَدَ لديها من دماثة خُلقٍ ورغبةٍ في مساعدته فحسب، ولكن أيضًا لما اكتشفه لديها من مَعينٍ عجيبٍ من الثقافة العالَمِيَّة، ولاسيما ثقافة النِّدَّين العالَمِيَّين إذ ذاك: الاتِّحاد السوفييتي، والولايات المتحدة الأمريكيَّة.

بكُلِّ أريحيَّة دعتْه ذات مساءٍ إلى كوب قهوة في أحد الأماكن، وقد أصبحتْ بينهما شِبه صداقة. وكان قد حصل على رقم هاتفها، فكان يهاتفها بين وقتٍ وآخَر من أيّ مكان، ويناقش معها شتَّى القضايا حول العالَم. إنهم أُناس يتحبَّبون إليكَ؛ يُحِبُّون النَّاس، والأصدقاء، والتعارف، والثقافات، والتعلُّم. وقد وجدها وليدُ فرصةً أيضًا ليقوِّي معرفته باللغة والثقافة والمجتمع هناك. وقد كانت سوزان، وذلك هو اسمها، مَعينًا هائلًا من المعلومات وحُبِّ التعلُّم والتعليم.

كانت تَحْدِب على وليد كأنه ابنها، أو أخوها، وتُتابع أخباره بحُبٍّ واهتمام. يا الله.. أيُّ بَشَرٍ هؤلاء؟! كان يسأل نفسه إزاء مواقفها منه. لو قابَل الرجل مثل هذا في مجتمعاتنا لَفُسِّر الأمر على أنه لمآرب أخرى، أو لمكائد، أو في أحسن الأحوال أن «السنارة قد غمزت»! أمَّا هناك، فلا سنانير! كانت سوزان متزوجة برجل أمريكي يعمل في التعليم، كما أَخبرتْ وليدًا، وقد وعدته بأن ستعرِّفه به ذات يوم.

دارت بينهما الحِوارات عبر تلك اللقاءات في كُلِّ شأنٍ تقريبًا، من الخاصِّ إلى العامّ. فتوطَّدت بينهما العلاقة كثيرًا. كانت تصطحبه في سيَّارتها أحيانًا إلى أماكن شتَّى، الأسواق، المتاحف، المكتبات، الجامعات، وتُعرِّفه إلى صديقاتها وأصدقائها.

ذات مساء دَعَتْه إلى منزلها لحفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلادها، ليلتقي لأوَّل مرَّة زوجَها جُون وابنهما أليكس.

فعرف هنالك ثِقة الرجل بامرأته، والتعامل معها على أنها إنسانٌ حُرٌّ عاقلٌ، لا على أنها كائن قاصر، وهو الوَصِيُّ عليها، والحارس لها دون الوقوع في الرذيلة. تخيَّلوا، بمعايير قِيَمِنا، امرأةً متزوِّجةً جميلةً تصطحب رجلًا إلى بيتها لتُعرِّفه إلى زوجها وابنها على أنه صديقها العزيز! هذه فيها خرابُ بيوتٍ رسميٌّ في مجتمعاتنا، إنْ حَدَثَتْ، أو حتى إنْ حُدِّث بها. أمَّا هناك، فالعلاقة قائمة على الثِّقة، والتكافؤ، والاحترام المتبادل. إنه يَثِقُ بامرأته ثقةً مطلقةً، ويَثِقُ بنفسه كذلك، ولا ترتعد فرائصه قَلِقًا أَنْ ربما تكون قد استبدلتْ به رجلًا غيره. ولئن فَعَلَتْ، فهي وذاك؛ هي حُرَّة، ما دامت لم تَعُد مُعْتَدَّةً به. أمَّا في ثقافتنا، فحتى الحُبّ يُمارَس بالقُوَّة الجَبْرِيَّة. على المرأة، خاصَّة، أن تُحِبَّ صاحبها غَصْبًا عنها، حتى لو لم تَعُدْ تُطيقه، وعليه أنْ يَبُثَّ العيون من بين يدَيها ومن خلفها، ويُطلِق قرون الاستشعار للتحرِّي عنها، ليتأكَّد

أن قلبها ما زال في محلِّه، لم يَزِغْ ذاتَ اليمين ولا ذات الشِّمال. وحتى إنْ حَدَث، لا سَمَحَ الله، فحقيقةٌ يجب طمسها، أو طمس المرأة نفسها التي تحملها! وهو سلوك ضِدّ الحُبّ أصلًا، بل هو باعثٌ للكُرْهِ والتنافر. علاقة الحُبّ في مجتمعاتنا تتحوَّل إلى شِبْه دولةٍ ديكتاتوريَّة، زعيمها الرجل وشَعبها المرأة والأبناء.

كان وليد ما ينفكّ يسرح في تحليلاته تلك، حتى لقد كان يغيب عمَّن حوله في بعض خواطره تلك، حتى يوقظوه من سُحبها المتراكمة الدائرة برأسه.

تذكَّر، وهو يشاهد تعامُل جُون مع سوزان، أحدَ أعمامه في السنين الخوالي، حيث كانت قِيَم القَرْيَة ما تزال بنقائها الأوَّل الأصيل. كان ربما جاء العمّ من طريق، أو نهض من نوم، وامرأته (عافية) في فناء الدار تتبادل أطراف الحديث مع جارهم. فيُسلِّم عليهما ويجلس معهما مشاركًا في

الحِوار. ما كان يحمل الشكَّ في امرأته قط، ناهيك عن أن يمنعها من مثل ذاك السلوك الاجتماعي الطبيعي. ولا كان ينظر إلى جارِه إلَّا كأخيه. على أن الأخ الشقيق الآن قد بات محلَّ ارتيابٍ وحَجْبٍ عن امرأة أخيه. وكان حينما يُثير مثل هذا الاستغراب، يجابَه بأن ذلك كان أَيَّامَ الجاهليَّة، وأن الناس كانت قلوبهم طاهرة، وليسوا كناس هذه الأَيَّام، والعياذ بالله!

كانت قلوبهم طاهرة!

تُرَى مَن/ ما الذي لوَّثها، إذن؟!

ما لوَّثْتها سوى ثقافة المنع والحَجْب والشَّكّ، والشَّيطنة، للرجل والمرأة. إنها ثقافةٌ تَغرِس منذ الطفولة في الأُنثى والذَّكَر أنهما شيطانان رجيمان، نجسان، لا يُمكن أن يلتقيا إلَّا على أرض الجنس، ولا أن تقوم بينهما أَيَّةُ علاقةٍ، بأيٍّ شكلٍ من الأشكال، إلَّا والجنس ثالثهما، والشيطان

رابعهم، من ورائهم جهنّم وأمامهم! حقًّا إنها ثقافة مريضة، ومجتمع أخرق.

تُرى أ تَوَطَّدَت الفضيلةُ وَفق هذه الأنساق القيميَّة المستحدثة؟!

تلك هي الأُضحوكة حقًّا، بل زادت الجرائم، والفواحش، والشذوذ، والطلاق. أَدَّى العزل إلى ظهور أحفادٍ لقومِ لُوط، من المِثْلِيِّين، رجالًا ونساء! وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، فالمرأة لا ترى من الكائنات الحيَّة إلَّا بنات جنسها، والرجل لا يرى إلَّا أبناء جنسه. والنتيجة لهذا الوضع غير الطبيعي ستكون غير طبيعيَّة: أن يقع الشذوذ. قال وليد في نفسه، كمن يُجيب محاوِرًا آخر:

نعم، لقد خَبِرْتُ هذا حتى في الحيوان، فقد كُنَّا نرَى، ونحن صغار، ذُكور الضَّأن أو المَعْز حين تُعزَل عن إناثها يُجَنُّ جنونها، فيَسْفَد بعضُها بعضًا، وربما سَفِدَ الذَّكَرُ أيَّ شيءٍ، من

حَجَر أو شَجَر! القضيَّة ليست قضيَّة جِنْسٍ فحسب هاهنا، بل هي حاجةٌ فِطريَّة أيضًا لإحداث توازنٍ نفسيٍّ واجتماعيٍّ، يجعل الرجل يحترم المرأة كشَريكٍ في الحياة، لا كوعاء شهوةٍ، ومَكَنَة تفريخ! ولكن كيف يُمكن أن تُتَفَهَّم هذه الشؤون الإنسانيَّة، التي تُعَدُّ من سُنَنِ الله في خلقه، في مجتمعات تُجَرِّم ما تسميه «الاختلاط»، في رهبانيَّة إسلاميَّة مبتكرة، ابتدعوها، ما كُتِبَت عليهم، فما رَعَوْها حَقَّ رِعايتها؛ لأنها ضِدّ الطبيعة والواقع؟!

ربطتْ علاقةٌ متينة بين وليد وسوزان وجون وألكس. دَهِش لما وجده من حُبٍّ حميميٍّ بينه وأولئك «الكُفَّار»! لقد أصبحوا يتعاملون معه وكأنه من أفراد العائلة. كان يشاركهم المناسبات والاحتفالات العائليَّة. يُجالسهم ويفرح معهم. يُطاعمهم ويُشاربهم. كان جون يشرب الخمر، لكنَّ هذا لا يُفقده اتِّزانه، ووقاره، وأريحيته، بل ربما زاد فيه توهُّجَ

تلك الخصال. فيما كانت سوزان لا تشرب إلَّا بعض النبيذ مجاملةً في المناسبات. أمَّا هو، فقد كان حرَّم على نفسه شُربَ شيءٍ من ذاك بتاتًا بعد تجربة لندن. فلقد مَرَّت به تجربة تلك القارورة العجفاء، وما أورثتْه من خيبة نشوة، مرورَ اللِّئام! وإنْ كان، إذ لندن، قد جعل يُوَسْوِس إليه شيطانُه أن العيب يكمن في النوعيَّة، فجرَّب (الفودكا)، و(الوسكي)، وغيرهما ممّا لا يعرف، فلم يجد في مقارفتها كلِّها سِوى قَرَفٍ منها كلِّها. كان يشتري من أصنافها عشوائيًّا، دون أن يعرف النوعيَّة، أو الخاصيَّة، فقط ليختبر عمليًّا ما قرأه نظريًّا حول الخمور، وما مَرَّ به من سبُحات الخيال الشِّعري حولها، ومن هالات القداسة والرجاسة التي أحيطت بها. مضى على ذلك أشهُرًا، حتى آمَنَ إيمانًا لا يتزعزع أن الخمر رجسٌ من عمل الشيطان حقًّا، لا يتعاطاها إلَّا امرؤٌ قد سَفِهَ نفسه. هنالك عافتْها نفسه، وآمَنَ أنَّ مَن يُقارف الخمر ليس سِوى إنسانٍ

قد بَلَغَ أحطَّ درجات الانحطاط، إنْ صحَّتْ تسميته بإنسان؛ ما دام لا يرى بأسًا في التنازل عن عقله/ عن إنسانيَّته. والحيوان أكثر عقلانيَّة منه إذن! إنَّه لا يستحقّ الاحترام، على الإطلاق! حقًّا إنها أُمُّ الكبائر؛ لأنها اعتداء سافر على العقل، والعقل هو أعظم هِبَةٍ وَهَبَها الله للإنسان.

مَن ذا الذي يرضَى عن العقل بالجنون، أو باللَّا عقل، أو بنصف عقل، أو بعقلٍ مخدَّر؟ إلَّا أنْ يكون مخلوقًا مريضًا، مُبْتَلًى في أَخَصِّ خصائص شخصيَّته. بل لقد كَرِه لا شُرب الخمر، أو الخمر، أو الفِكرة في ذاتها، فحسب، بل صار يزدري كذلك مَن يتعايش- بشكلٍ أو بآخَر، بتَفَهُّمٍ، أو بسلميَّة- مع مَن يرتكب تلك الجريمة النكراء، كائنًا مَن كان. إلَّا أنْ يجتهد في الإصلاح، أو البراء. فما لم يفعل، كان شأنه أشنع ممَّن يُوَادّ قاتِلًا. واستذكر الآية: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورَسُولَهُ، ولَوْ

كَانُوا آبَاءَهُمْ، أَوْ أَبْنَاءَهُمْ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ، ويُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ، أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ، أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فهل المحادَّة لله ولرسوله هي بعدم الإيمان بدِين الإسلام، كما هو الفهم الشائع؟ لقد كان الرسول نفسه يوادّ غير المسلمين. بل طلب إلى أصحابه أن يُهاجِروا إلى النصارى في الحبشة، وامتدح أخلاقهم وعدلهم. وجاء في القرآن: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا، ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ورُهْبَانًا وأَنَّهُمْ لا يَسْتكْبِرُونَ﴾. إذن المحادَّة ليست بالضرورة لاختلاف الدِّين المعيَّن، ولكن لاقتراف حدود الله العامَّة، والمشتركة بين جميع الأديان. إنها محادَّة الله في المبادئ الكلِّيَّة، التي جاءت الأديان

لإرسائها، ورفض انتهاكها، من انتهاك حرمات الدم، والعِرض، والعقل، والمال. وانتهاك حُرمة العقل مَدْخَلٌ لكُلِّ الانتهاكات الأخرى. فبفُقدان مركز السيطرة العقلاني يُمكن فِعل أيّ شيء وكُلّ شيء.

كان وليد ما ينفكّ يدور رأسه بتلك الأفكار، وقد كان يحاول منهجه ذاك، اقتناعًا بفكرته حول الخمر، مع جُون، ولكن العلاقة لم تكن تسمح بها فوق المحاولة. وتجربته تلك جعلته من جهةٍ أخرى يؤمن كذلك بأن الإيمان بلا تجربةٍ ليس بإيمان، وإنما هو تقليد أو نفاق أو طاعة عمياء. كان هذا السؤال يُجري في خاطره معادلات خطيرة؛ إذ لو سلَّمنا بضرورة تجربة كلِّ الموبقات والمحرَّمات لكي نقتنع بحُرمتها وضررها، إذن لفسدت الأرض! وربما لم نقتنع، وربما أدمنَّا، فأصبحنا نداويها بالتي كانت هي الداء، على طريقة أبي نواس. وما معظم مدمني الكحول والمخدرات براغبين في

الاستمرار في معاقرتها، بل هو الإدمان، الذي يصلون فيه إلى انغماسٍ لا فكاك لهم منه؛ وكم يَوَدُّوْنَ لو استطاعوا منه الفكاك. غير أن وليدًا كان قد سلَّم أن الإنسان يظلّ كطفلٍ، لا يسمع زجر والدَيه عن مَسِّ الجمر حتى يَمَسُّه، فيزدجر. بيد أن العاقل من اتَّعَظَ بغيره، وأخذ الحكمة، ولو من أفواه المجانين، ولم يُقحِم نفسه في تجربةٍ غير مأمونة العواقب، وأفاد من رصيد القِيَم الأخلاقيَّة، والتعاليم الدِّينيَّة، ولاسيما تلك التي تبدو ماتحةً من ماء العقل وسنن الطبيعة.

ما لَفَتَه أيضًا في غضون عالمه الأمريكي الجديد هو: لماذا في عالمنا الشرقي ينقلب كُلُّ شيءٍ إلى بَلْوَى، للذَّات وللآخَرين، حتى تناول الطعام الحلال؟! لماذا نجد المرء، أو حتى المرأة، هنا في المجتمعات المتحضرة، يُمكن أن يدخِّن، يُمكن أن يتعاطَى الخمور، يُمكن ويُمكن، دون أن يُفقده ذاك كياسته، غالبًا، أو لباقته ولياقته، واحترامه لنفسه

وللآخَرين، بل ربما دون أن تُدرِك أنه ممَّن يفعلون ذلك؟! إنه يشرب ما يشرب بذوق، وبكَيْف، وبعقل، وباعتدال، لا بنُزوعٍ عُدوانيٍّ ضِدّ نفسه والآخَرين. تلك ليست قاعدة عامَّة، لكنَّها غالبةٌ ملحوظة. ولذلك يشرب الخمر هنالك أيضًا عِلْيةُ القوم وسادتهم، ولا يتضادّ ذلك مع مكاناتهم الذهنيَّة والاجتماعيَّة. فيما نلحظ في مجتمعاتنا أنْ حتى المباحات تتحوَّل إلى ما يَصِحُّ أن يُدْرَج في باب المحرَّمات، نتيجة الإسراف فيها والبَطَر في استعمالها. وذلك مصداق المقولة الدارجة: «ما زاد عن حَدِّه انقلبَ إلى ضِدِّه»!

كان، وهو يُحاكِم ويُقارِن، يعي أنه يَدخل منطقةً محظورةً من التفكير والتساؤل، وَفق ثقافته الأُمّ. لكنه «مَعْبُول»، كما لَقَّبوه، ومرفوع عنه القلم! فليتساءل ما شاء، وليُفَكِّر! هكذا وَجَدَ من الضروري، حتى بينه وبين نفسه،

أن يَجِدَ له المبرِّر، والفتوى الذاتيَّة المريحة للضمير، فأَناه العُليا، وإنْ بَعُدَ عن دِيارها، ما تَنْفَكُّ تُلاحقه!

لماذا شارِب الدُّخان في بلده ما يلبث أحيانًا أن يتحوَّل إلى شارِب خمر، ثُمَّ إلى مُحَشِّش، ثُمَّ يترقَّى إلى مُجرِم، ربما ارتكب أقذَر الجرائم بلا ضمير؟!

حتى الفن في بلد المَعْبُول يُصبح أحيانًا بوابة غواية وضلال بعيد! إنه المنع، والتحريم، ومصادرة الحُريَّات الشخصيَّة، و«شيطنة» مَن يدنو من هذا العالَم من «التابوهات» في مجتمعاتنا المشرقيَّة، ما يجعل مقارَبتها قرينَ نزوعٍ إلى التمرُّد على المجتمع. فما أنْ نمنع شيئًا، ونُلقي عليه عباءة الشيطان، غارسين في الذهن منذ الطفولة أنه خطيئة، وأن مقترفه من حزب الشيطان لا محالة، حتى نُغري به أنفسنا أكثر، وندفع الناس إلى اكتشافه وتذوُّقه، «والنفسُ راغِبَةٌ إذا رَهَّبْتَها»، وليست «إذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ»، كما زعم

أبو ذؤيب الهذلي. فتلك مثاليَّة فاشلة؛ لأنها غير واقعيَّة. من هنا فإنه إذا استقرَّ في النفس أن هذا الأمر باب الشيطان، حَدَّثَتْنا النفس بولوجه، بمُغرياتِ ما يُحكَى لنا من أنه ما حُرِّم إلَّا لما فيه من مَلَذَّاتٍ خرافيَّةٍ محرَّمةٍ، لا تَحِقُّ للمؤمن في الدنيا، فلينتظرها في الجنَّة! ويستمرّ المخيال الثقافي الشعبي في المبالغة في تصوير تلك البهجة التي حُرِم منها المؤمنون الأتقياء، وتضخيم شأنها في عين مَن فَرَضَ عليه التُّقَى والإيمان الحرمانَ منها فَرْضًا. ولذلك تجد هؤلاء، من الأتقياء والورعين والمترهِّبين، إنْ صِدْقًا وإنْ كَذِبًا، أكثر البَشَر شَغَفًا بتلك المحرَّمات وحُلْمًا بها. وهم إنْ اجتنبوها في الدنيا، فما ينفكُّون يحلُمون بها في الآخِرة، حتى تُسيطر على نزوعاتهم الروحانيَّة بعيدًا عن ملذَّات الحِسّ والجسد. حتى إذا أَزَّهم شيطانُهم الذاتي والثقافي أَزًّا إلى مقارفة ما حسبوه منها ماءً، لم يجدوه سِوى سرابٍ بقِيْعَةٍ، ووَجدوا الله عنده.

فإذا هم يشعرون أنهم في تلك الحال قد تلوَّثوا، فتسقط قِيَمُهم الاعتباريَّة من ذوات أنفسهم، ويتقمَّصون الشعور بالذنب والخطيئة، وتبعيَّة الشيطان. لذلك تنكسر في أنفسهم قِيَم أخرى كثيرة مصاحبة في المعيار الاجتماعي، وتتضعضع ثقتهم بأنفسهم، واحترامهم لها، فيواصلون السير في طريقهم الموحِل ذاك.

أ وليست الثقافة لدينا تُشيطن الفَنَّ في الأذهان؟

فمَن دخل بابه، أمسى لا ينجو من ممازجة نفسه لهذه النظرة الجمعيَّة للفَنِّ، اللهم إلَّا بِوَعْيٍ استثنائيٍّ عميقٍ، يُعتقه من هذا الكابوس، فلا ينزلق فيما يُمكن أن تَجُرَّه إليه الثقافةُ عبر هذا الباب. وكذا هو شعور مَن يرتكب مِن تلك المحرَّمات الجمعيَّة قليلًا أو كثيرًا. من حيث إن الثقافة إنما تُغريه بما تحسب أنها تَصُدُّه عنه، ثُمَّ تنفُث في وجدانه شيطنته إنْ هو اقترفه، ومِن ثَمَّ تدفعه دفعًا إلى التمادي فيه من أَوَّل

هفوةٍ أو زَلَّة قدم، بل إلى ممارسة ما قَرَنَتْه به من سلوكيَّات أخلاقيَّة سيِّئة أخرى. «فما حيلة المضطرِّ إلَّا ركوبها؟!» هذا ناهيك عمَّا يُصادفه الإنسانُ المقارفُ لما جَعَل المجتمعُ دونه خطوطَه الناريَّة من نَبْذٍ اجتماعيٍّ، وطَعْنٍ فظيعٍ في كرامته، وشَرَفِه، ودِينه. ليتشكَّل بسبب ذلك كلِّه على تلك الشاكلة التي يخلِّقها له العقل الأخلاقي الاجتماعي، وإنْ لم يكن ما هو فيه من إثمٍ مستلزِمًا، بالضرورة، صورتَه الشنعاء تلك.

كان وليد في حيواته تلك هائمًا في غيمٍ من الشكِّ، والتساؤلات، والحُبّ، والسعادة، واللَّذة بأنفاسِ مجتمعه الجديد، الذي أحال غُربته قُربة، ووحشته أُلفة، مع سوزان وجون وأليكس.

الفصل الحادي عشر

وما زال وليد يتقلَّب في رياض أمريكا، في بحبوحةٍ من الحُبِّ والحريَّة والجَمال، حيث تنصهر الأعراقُ والأوراقُ، الأجسادُ والعطورُ والأفكار. لقد تحوَّلتْ الشُّقَّةُ التي يقطنها، والفيلَّا التي تقطنها عائلة سوزان، إلى دارٍ واحدةٍ، فهم تارةً لديه، وهو تارةً لديهم، وربما قضَى معهم أَيَّامًا ، أو قضوا معه أَيَّامًا، في أحد المكانين. حتى أخذَ يشعُر بأنهم عائلته، وأنه كان يعرفهم منذ سنين طوال. كان يُحدِّث نفسه أنهم المثال «للموطَّئين أكنافًا، الذين يَأْلَفُونَ ويُؤْلَفُون». ثُمَّ يعود ليزجُر نفسه عن غُلَواء الإعجاب بالكُفَّار، كما كان يُلَقَّن منذ الصِّغر! ولكن كيف السبيل، ودماثة الأخلاق غلَّابة؛ تجبرك على الإعجاب بالإنسان، وعلاقات الإنسان بالإنسان على هذه الأرض هي أعرق من علاقات الأديان والأعراق.

لم تكن صدمةُ وليدٍ بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة حضاريَّة، كما تَوقَّع من خلال قراءاته التَّهويليَّة عن بلاد العم سام، بمقدار ما كانت إنسانيَّة، وطبيعيَّة (إلى حدٍّ ما). أي من حيث أخلاق الناس، وجمال الطبيعة. أمَّا من حيث المدنيَّة والتحضُّر والتقنية، فلم يكن هنالك ما يبعث لديه على الدهشة الكبيرة، أو على الانبهار الصارخ. صحيح أنه ذلك القُرَويُّ الذي لم ير السيَّارة ولا البناء الحديث قبل سِنِّ العاشرة؛ فلم يكن ليُعاقر الحضارة ومظاهرها إلى بعد العِقد الأوَّل، إلَّا أنه كان قد جاءها مُمتلئًا بالطبيعة البِكر، بكُلِّ مظاهرها وتحوُّلاتها الفيزيائيَّة؛ فكان كابن الغابة حين يكتشف الحضارة؛ أو كحَيِّ بن يقظان حين يغادر جزيرته المعزولة! على أن معظم مدن العالَم، التي تمرَّغ في ألبانها وأوحالها، كانت قد أخذت بنصيبٍ من زينة هذا التأمرك السائد، وبأقدار لا بأس بها. ولئن لم تكن الصُّوَر متطابقة

بينها كل التطابق، فهي متشابهة إلى حدٍّ بعيد. فمِن السهل أن تُشترَى المادّة، ومن اليسير أن تُحاكَى البنَى الحضاريّة، بل أن تُنقَل جاهزة إلى مَن يملك المال، غير أن الإنسان لا يُشترَى، ولا يُحاكَى، ولا يُنتقَل! كما أن الطبيعة لا تُشترَى، ولا تُحاكَى، ولا تُنتقَل. ذلك خَلق الله، وتلك أخلاق خَلقه، وليس ما يخلق الله، ولا ما تخلق الثقافة، كما تخلقه الأيادي وتصنعه المصانع.

أعجبَه هناك الانضباط، واحترام حقوق الإنسان. وإنْ لم يفهم إلى ذلك مثلًا حَقَّ ذلك القطار الذي كان يقطع منتصف ليله بعَويله وإزعاج صُوْرِهِ المنفوخ، فيوقظه من منامه! إنّ الحضارة غير كاملة، واحترام حَقِّ الإنسان والطبيعة غير كاملين. بل إن أخلاقيَّات هذه الامبراطوريَّة، التي باتت مَثَلَ العالَم الأعلى، هي التي لَوَّثَتْ طبيعة العالَم،

ونشرتْ أشعَّتها الفتَّاكة، نوويَّةً وغير نوويَّة، وثقبت جدار الأوزون، وأصبحت تهدِّد كوكبنا الجميل بالدَّمار.

وجوهٌ متناقضة، تبدو ضريبةَ حضارتنا الناقصة.

وعاد وليد من سَفرته تلك ليقيم في الرِّياض بضع سنوات. كانت الأجواء إذ ذاك ملبَّدة في العاصمة بعاصفة الصحراء وعواصف أخرى.

...

«هنا الكويت! أيُّها المواطنون الكويتيُّون الأحرار، أيُّها العرب في كلِّ مكان، لقد كشف الغدر عن نابه، وكشف الطغيان عن مخالبه، وأماط اللِّثامَ عن مطامعه! إنَّ الذي يتمُّ الآن، وعلى مشهدٍ ومسمعٍ من العالَم كلِّه، صورة مخزية للغدر نفسه! إنَّ غزو الكويت باسم العروبة هو أحد أعاجيب الدُّنيا! ولكن متى عرف الطغيان الحياء؟! إنَّ نشيد العروبة على فمهم كان خدعة! إنَّ حماية العروبة في إعلامهم كان

مكرًا ومناورة! تحدَّثوا عن القِيَم، وخانوها! وتحدَّثوا عن الخيانة، وتمرَّغوا في حمأتها! وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلَبٍ ينقلبون!

هنا الكويت!...».

منطقتا الجزيرة العربيَّة والخليج العربيّ تَلُمَّان اليوم عباءتَيهما على ظروفٍ سياسيَّةٍ غير مسبوقة، وفواجع لم يشهد لها أبناؤهما مثائل. فقد اجتاحتْ دولةُ العراق دولةَ الكويت، واحتلَّتها في يوم الخميس ١١ محرَّم ١٤١١هـ الموافق ٢ أغسطس (آب) ١٩٩٠م. فتحالفتْ دولٌ بَلَغَتْ ثلاثين دولةً، بقيادة (صديقة وليد قبل قليل)، الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وحشدتْ جيوشها منذ ذلك التاريخ على أرض الجزيرة، وقامت الحرب الجويَّة على (شقيقة وليد الدائمة) العراق، وذلك في مستهلّ شهر رجب من ذلك العام.

يستيقظ وليد في الساعة الحادية عشرة صباحًا من يوم الخميس ٧ شعبان ١٤١١هـ (=٢١ فبراير ١٩٩١م)، ليستمع إلى إذاعة (صوت أمريكا) وإذاعة (لندن) مردِّدتَين الإخبار عن المساعي السِّلميَّة التي اقترحها الاتِّحاد السوفييتي لحلّ الأزمة، عبر خطَّة زمنيَّة، في انتظار ردِّ العراق، عن طريق (طارق عزيز)، وزير خارجيَّة العراق، الذي سيذهب إلى (موسكو) لحمل ردِّ بغداد على المبادرة، التي لم يُعلَن اليوم عن تفاصيل محتواها. وانقسم العالَم حول تلك الخطَّة، بين مؤيِّد ومعارض. وكانت من الدُّوَل التي أيَّدتها: إيطاليا والمغرب من دول التحالف، فيما أعربتْ أمريكا عن عدم رضاها، دون رفضٍ قاطع.

كانت الآذان مشدودةً خلال تلك الحقبة إلى الإذاعات، والأعين شاخصةً إلى الشاشات. لم تكن إلَّا شاشةٌ واحدةٌ وحيدةٌ، هي القناة الأُولى والأخيرة، إلى جانب

قناةٍ باللغة الإنجليزيَّة. لا فضاء، لا شبكة عنكبوتيَّة، ولا حتى جوَّال. لم يَعرف البَشَرُ بَعد هذا الترفَ/ هذه الثورة الإعلاميَّة والاتصاليَّة الكونيَّة. وكان الخِناق السياسي يحيط بالمعلومة والخَبر، فما كانت سِوى (إذاعة لندن)، بالدرجة الأُولى، أو (صوت أمريكا) بالدرجة «السياحيَّة» الإعلاميَّة!

«سيداتي سادتي، في خبرٍ عاجلٍ، وردنا الآن: أن الرئيس العراقي (صدَّام حسين) سيُلقي خطابًا مهمًّا بعد قليل...».

يُحاول وليد أن يبحث عن إذاعة بغداد دون جدوى، فقد كان هذا شِبْهَ مستحيلٍ في الرِّياض، بطبيعة الحال، لأنَّها الرِّياض أوَّلًا، ثُمَّ لعمليَّات الحرب الإعلاميَّة القائمة، التي من أدواتها التشويش على الإذاعات المعادية.

كان كثيرٌ من الناس قد غادروا العاصمة الرِّياض في هذه السنة زُرافاتٍ ووحدانًا، في قوافل من السيَّارات نحو

جَنوب البلاد. لم يجد وليد سببًا مقنِعًا للهرب من العاصمة مع الهاربين، ولا حتى لشراء الأقنعة الواقية من الغازات الكيمياويَّة، التي أرعبوا الناس باحتمال إطلاق العراق صواريخ تحملها، واكتفى بلصق تلك الأشرطة البلاستيكيَّة على النوافذ الزجاجيَّة، كما فعل معظم الناس. بل ربما كان آخرون أشجع من ذلك، إذ غرَّدوا خارج السرب المتَّجه جنوبًا، فبقي أهل الحدود الشَّماليَّة في ديارهم، وبقي أهل الجنوب والغرب والوسط يزورون الشمال والشرق، طيرانًا أو بَرًّا، على نحو اعتيادي. على أن هاجس الخوف لم يكن من قرب العراق، بل من الإقامة في تلك المدن المستهدفة بالصواريخ؛ إمَّا لأهميَّتها أو لوجود قوّاتٍ للتحالف فيها.

لم يَسمع وليدُ خطابَ صدَّام، لكنّه سمع بعد قليل إنذارًا عبر التلفاز بهجومٍ صاروخيٍّ وشيكٍ على مدينة الرِّياض، فنزل إلى الدَّور السُّفليّ من المبنى الذي يقطنه،

حسبما هي التعليمات في مثل هذه الأحوال، وحسبما تُنذِر به طَلَّةُ المذيع على الشاشة من الأهوال المُحدقة، إلى أن زال الخَطَر بعد دقائق.. وما كان ثمَّةَ من خَطَر! كان يَودُّ وليد لو استطاع الصعود إلى سطح البناية، لا الهبوط إلى أسفلها. أَخَذَ سكانُ العمارة يَلتفّ أحدهم ببطانيّة أو بشرشف، ويهبط إلى الدور الأسفل، في مشهدٍ كوميديٍّ يُرثَى له! أولئك هم الشجعان، ممَّن لم يَفِرُّوا من صدَّام، أو ألجأتهم ظروف العمل للبقاء في الرِّياض، مجبَرين لا أبطالًا.

الجوُّ شتاءٌ على الأرض، نارٌ في السماء!

جَعَلَ وليد- بعد زوال الخَطَر من الهجوم الصاروخيّ- يُصلِح مِدفأته، ويَستمع إلى بعض ما استطاع التقاطه ممَّا وَرَدَ في خطاب صدّام، الذي تضمَّن رفض الاستسلام، ومواصلة التحدِّي، والحديث عن «النَّشامَى»، من جانبٍ، في مقابل «عملاء الأجنبي»، من جانبٍ آخر. كما تضمَّن

لَـمْسَةً تاريخيَّة مُطْرِبَة: «مِن عبدِالله، صدّام حسين، إلى بوش، كلب الرُّوم، الجوابُ ما ترى لا ما تسمع!...».

يا الله، كم يُطرِبنا، نحن العرب، التاريخُ، والكلامُ الحماسيُّ، إلى درجة الثَّمَل الصُّوفيّ، وإنْ دون مشاهدَة؟!

ولكن شتَّان بين زمنٍ كان الكلامُ يَعني، وزمانٍ لم يَعُد يَعني الكلامُ سِوى الكلام! شتَّانَ بين رسالة هارون الرشيد إلى نقفور «كلب الرُّوم!»، التي تَستند إلى واقعٍ حضاريٍّ مناسبٍ، ورسالة صدّام حسين، التي لا تَستند إلَّا إلى العواطف والوهم والقفز في الفراغ!

استلَّ وليدُ من بين أوراق كان يقلِّبها متذكِّرًا أيّامه في ديار أصدقاء الأمس أعداء اليوم- ويا لسخرية الصُّدَف!- جُذاذاتٍ مُصَوَّرةً عن كتاب «التاريخ الأوغسطي»، «Scriptores Historiae Augstae»، وهو كتابٌ تاريخيٌّ، كُتب باللاتينيَّة، وترجمه إلى الإنجليزيَّة DAVID MAGIE، (طبعة

لندن: ١٩٣٢). وكان وليد قد طالَعه في مكتبة نيويورك العامَّة، حيث صوَّر منه صفحات، وكان أمامه منها الصفحتان (٢٤٧ و٢٤٩)، من الجزء الثالث. وعليهما تلكما الرسالتان بين إمبراطور الرومان (Aurelian أورليان) والملكة العربيَّة المشهورة (Zenobia زَنُّوبيا/ بنت زباي)، التي حكمتْ في القرن الثالث الميلادي مملكةً من أهمّ ممالك الشرق في التاريخ العربي القديم. كانت عاصمةُ مملكتها تَدْمُرَ، ثُمَّ توسَّعت لتشمل سوريّة، وبلاد الشام، باسطةً نفوذها شَمالًا على آسيا الصغرى حتى أنقرة، وجنوبًا حتى النِّيْل[1]. وكانت الملكة قد سَعَتْ إلى الاستقلال والتحرُّر من الرُّومان. وتمخَّضتْ مواجهاتُها مع الملك الرُّوماني (جالينوس Gallienus) عن هزيمته، ومقتل قائد حربه

[1] وهي غير (الزَّبَّاء بنت عمرو)، صاحبة الأُقصوصة في التراث العربيّ مع جذيمة الأبرش، وقصير (الذي جَدَعَ أنفه).

(هِرَقل/ هِراكليانوس Heraclianus). فشَنَّ الرُّومان عليها حملات حربيَّة ضارية. وتأريخ الرسالتَين هو عام ٢٧٢م:

XXVI. "From Aurelian, Emperor of the Roman world and recoverer of the East, to Zenobia and all others who are bound to her by alliance in war. You should have done of your own free will what I now command in my letter. For I bid you surrender, promising that your lives shall be spared, and with the condition that you, Zenobia, together with your children shall dwell wherever I, acting in accordance with the wish of the most noble senate, shall appoint a place. Your jewels, your gold, your silver, your silks, your horses, your camels, you shall all hand over to the Roman treasury. As for the people of Palmyra, their rights shall be preserved."

XXVII. On receiving this letter Zenobia responded with more pride and insolence than befitted her fortunes, I suppose with a view to inspiring fear; for a copy of her letter, too, I have inserted: "From Zenobia, Queen of the East, to Aurelian Augustus. None save yourself has ever demanded by letter what you now demand. Whatever must be accomplished in matters of war must be done by valour alone. You demand my surrender as though you were not aware that Cleopatra preferred to die a Queen rather than remain alive, however high her rank. We shall not lack reinforcements from Persia, which we are even now expecting. On our side are the Saracens, on our side, too, the Armenians. The brigands of Syria have defeated your army, Aurelian. What more need be said? If those forces, then, which we are expecting from every side, shall arrive, you will, of a surety,

lay aside that arrogance with which you now command my surrender, as though victorious on every side."

This letter, Nicomachus says, was dictated by Zenobia herself and translated by him into Greek from the Syrian tongue. For that earlier letter of Aurelian's was written in Greek.

وهو ما ترجمته:

(XXVI). «مِن أورليان، إمبراطور العالَم الرُّوماني ومُنْقِذ الشرق، إلى زَنُّوبيا، والمتحالفين معها في الحرب كافَّة. عليكِ أن تُنَفِّذي، وبمحض إرادتكِ، ما آمُركِ الآن به في رسالتي. فإني أَعرض عليكِ الاستسلامَ، واعِدًا إيَّاكِ أنْ تَنْجَيْ بحياتكِ؛ بحيث تعيشين، يا زَنُّوبيا، مع أطفالكِ حيثما أُقَـرِّر، وَفقًا لمشيئة الغالبيَّة في مجلس الشيوخ. ويجب أن تُسلِّمي مجوهراتكِ، وذهبَكِ، وفضَّتَكِ، وحريرَكِ، وخيولَكِ، وإبِلَكِ، كاملةً إلى الخزينة الرُّومانيَّة. أمَّا الشَّعب التَّدْمُرِيُّ، فستكون حقوقه محفوظة.»

(XXVII). ولدَى تلقِّي زَنُّوبيا هذه الرسالة رَدَّت بفخرٍ وغطرسةٍ مُهينة [لأورليان]، تتجاوز ما يليق بمكانتها. وأتصوَّر أن ذلك بهدف بَثِّ الرُّعب [في الطَّرَف المقابل]، كما يتبيَّن من نسخة رسالتها، التي أُدرِجُها أيضًا هاهنا:

«مِن زَنُّوبيا، ملكة الشرق، لأوغسطس أورليان. ما ادَّعَى أَحَدٌ قَطُّ، باستثنائك، ما تدَّعيه أنت الآن في رسالتك. ألا بالبسالة في المواجهة الحربيَّـة وحدها يجب إحراز ما يجب إحرازه من شؤون الحرب. ها أنت ذا تُطالِب باستسلامي، كما لو أنك لم تكن على عِلْمٍ بأن كليوبترا قد فَضَّلتْ الموتَ مَلِكَةً على البقاء على قيد الحياة، ومع ذلك فَهِيَ مَن هِيَ! إنَّنا لا تُعوِزنا تَعزيزاتٌ من قِبَل الفُرْس، ما زلنا نتوقُّعها حتى الآن. وإلى جانبنا الأَعرابُ، وإلى جانبنا الأَرمنُ أيضًا. صعاليكُ سوريَّة وقُطَّاعُ طرقها، يا أورليان، هَزَمُوا جيشَكَ! أكثر من هذا، ماذا، كي

يُقال؟! فإذا جاءنا، إلى ذلك، مَدَدٌ من تلك القوَّات، التي نتوقَّعها من كلِّ جانبٍ، فحتمًا ستتخلَّى عن عجرفتكَ تلك التي سَوَّلتْ لكَ أن تُطالبني الآن بالاستسلام، كما لو كنتَ أنت المنتصر على الجبهات كلِّها!»

وقد أُمْلِيَتْ هذه الرسالة، كما يقول نيكوماخوس، من قِبَل زَنُّوبيا شخصيًّا، ثُمَّ ترجمها هو إلى الإغريقيَّة من اللسان السُّوري. أمَّا الرسالة الأُولى، رسالة أورليان، فقد كانت مكتوبةً بالإغريقيَّة.

ويَذكُر المؤلِّف أن أورليان بتَلقِّيه هذه الرسالة لم يشعر بالخَجَل، لكنه بَدَلَ ذلك غَضِبَ، وعلى الفَور حَشَد جنوده وقُوَّاده على صعيدٍ واحدٍ من جميع النواحي، وقادَ حصارًا على تَدْمُر؛ وأَولى عنايته بكلِّ شيءٍ قد يعتوره النقص أو الإهمال. لأجل ذلك فقد قَطَعَ التعزيزات التي كان الفُرْس أرسلوها، ثم أدار لُعبته مع أسراب الأَعراب والأَرمن،

مستقطبًا إيَّاهم إلى صَفِّه، بعضهم بوسائل قَسْريَّة، وآخَرين بالحِيلةِ والمَكْر.

وأخيرًا، وبمحاولاتٍ مستميتةٍ غزا أورليان ديار تلك المرأة البالغة السَّطْوَة. ثُمَّ، فَرَّتْ على جِمالٍ عربيَّة، غير أنه أُلْقِيَ عليها القبض من قِبَل الخيَّالة الذين أُرسِلوا لتعقُّبها، فيما كانت تُحاول اللحاق بالفُرْس، ومِن ثَمَّ باتت تحت سيطرة أورليان.

ويتحدَّث المؤلِّف عن مصير زَنُّوبيا. فلم يستجِب أورليان لمطالبة بعض الرُّومان بقتلها؛ فأبقَى على حياتها، وأعدم مستشاريها ومعاونيها، بمَن فيهم (الفيلسوف الإغريقي Longinus لونجينوس)، الذي قيل إنه كان معلِّم زَنُّوبيا في اللغة الإغريقيَّة، وزُعِم أنه كان وراء تلك الرسالة الناريَّة التي وجَّهتْها إلى أورليان، فذَبَحَه لتلك الأسباب. بل لقد احتفل أورليان بزَنُّوبيا بمناسبة انتصاراته، وإنْ على نحوٍ

مُذِلٍّ، أشدّ من القتل؛ إذْ ظهرتْ محلَّاة بالجواهر الثقيلة، في موكبٍ مَلَكِيٍّ، مُكَبَّلَةً بسلاسل الذهب. وهناك مَن ذَهَبَ إلى القول إنها عاشت مُكَرَّمةً مع أطفالها في منزلٍ رُومانيٍّ جميل، خصَّصه لها أورليان في (تيبور Tibur)، في مكانٍ ما زال يُعرف باسم زَنُّوبيا. والكتاب ينضح بإعجاب أورليان الشديد بشخصيَّة زَنُّوبيا، إلى حدِّ الحُبِّ. وقد زُعِم أنه قد أحبَّها بالفعل، وعَرَضَ عليها الزواج بعد الأَسْر، فرفضتْه. كما يُسهِب المؤلِّف في وصف خِصالها ومحاسنها. على أن صِحَّة هذه الرواية حول اقتياد زَنُّوبيا إلى رُوما محلّ خلاف، فهناك من روَى أنها تُوفِّيتْ في طريقها إلى أوربا، إمَّا بسبب مرضٍ أو بانتحارها. وإنْ كان مترجم الكِتاب إلى الإنجليزيَّة يُقلِّل من صِحَّة هذه الرواية، ذاهبًا إلى أنها مختلَقة؛ لتشبيه نهاية زَنُّوبيا بنهاية كليوبترا. إلَّا أنه يبدو- في المقابل- أن قبول زَنُّوبيا بنهايةٍ تُناقِض ما وَرَدَ في رسالتها إلى أورليان-

مستشهدةً بنهاية كليوبترا- أمرٌ غير متوقَّع منها، وأن هذه الرواية الأخيرة حول نهاية الملكة هي الأقرب إلى الواقعيَّة، والأليق بشخصيَّة زَنُّوبيا الأَبِيَّة، وشخصيَّة أورليان التي تَتَّسِم بغير قليلٍ من التوحُّش. ولعلَّ الرواية الأخرى إنَّما سِيقت إمعانًا في تصوير التسامح الرُّوماني مع الملكة، من جهةٍ، ولإظهار المَذَلَّة التي لَحِقَتْ بها، في مقابل العَظَمَة الرُّومانيَّة المظفَّرة! هذا على الرغم من إيراد رسالةٍ لأورليان يُدافع فيها أمامَ الرُّومان عن موقفه باستحضار زَنُّوبيا إلى محفل الانتصار. غير أن تلك الرسالة لا تَدُلُّ بالضرورة على أن ذلك قد تَحقَّق. ومهما يكن، فلا ريب أن العاطفة القَوميَّة كانت تلعب بالنصِّ التاريخيّ هناك، كما تلعب به (وبنا) هنا؛ حتى تغيب الحقائق في ثنايا ذلك ومنعرجاته. والسؤال الباقي: هل كانت زَنُّوبيا مستقلَّةَ الهوى، أم أنها إنَّما كانت عميلةً للرُّومان، خانت ولاءها لهم، فعاقبوها؟ في رسالة

أورليان الأخيرة، المتضمِّنة تبريراته لاستدعائها إلى حفل انتصاراته، إشارات إلى خدمات تلك السيِّدة للرُّومان، بتأمين حدود الامبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشرقيَّة في مواجهة الفُرْس. ومن الثابت تاريخيًّا أن تلك المرأة كانت على ولاء للرُّومان، وأنها قد أفادتهم ضِدَّ الفُرْس، وتلك مقتضيات المصالح السياسيَّة وتحالفاتها، التي لا محيص عنها. غير أنه من المؤكَّد أنه ما أنْ قُتِل زوجها (الملك أُذَيْنَة)، غدرًا وعمالةً من داخل الأُسرة الحاكمة في تَدْمُر، بإيعازٍ من الرُّومان، لمـَّا أَحَسُّوا نُزوعَ أُذَيْنَة إلى الاستقلال، حتى تَحَوَّل موقفها. (أُذَيْنَة) الذي تردَّدتْ أصداء مُلكه وزواله فيما كان يَضرب به الشُّعراء الجاهليُّون المثَل من الأُمم السالفة. كقول الأعشى– عن الموت:

أَزالَ أُذَيْنَـةَ عَن مُلْكِـهِ

وأَخرَجَ مِن حِصْنِـهِ ذا يَزَنْ

وما أنْ آنستْ زَنُّوبيا الثِّقةَ في مملكتها، حتى تطلَّعت فعليًّا إلى الاستقلال، معوِّلةً على حليفٍ شرقيٍّ، خَذَلَها. إنه التاريخ، إذن، يُعيد نفسه؛ وما أشبه ليلة العرب ببارحتهم.

وهو التاريخ، يُعيد نفسه دائمًا، من قصَّةٍ أَزَليَّةٍ لتطاحن البشر. قال هذا وليد بعد ساعة، وهو يقرأ أيضًا في (الكتاب المقدَّس)، الذي كان أحد أصدقائه الأمريكان قد أهداه إليه، إبَّان إقامته في أمريكا. كان ذلك على سبيل التبشير، فالقوم يَعرضون خدماتهم بكلِّ أريحيَّة وكَرَمٍ ولباقة. وحين عَلِم أن وليدًا مسلمٌ عربيٌّ أودع في بريده نسخةً بالإنجليزيَّة مترجمةً إلى العربيَّة، تحتوي العهدَين القديم والجديد. كتابٌ عجيبٌ هذا الكتاب في تشعُّباته، وتداخل أخباره وأحداثه وأساطيره. ولا يكاد تاريخنا يَدُلُّ على أنه قد تغيَّر كثيرًا عمَّا تضمَّنه الكتاب المقدَّس من أنماط تاريخٍ وطرائق تفكيرٍ وصراع، سِوى أن أنواع الآليَّات المستخدمة قد اختلفتْ.

الساعة الآن الثانية عشرة وخمس دقائق من صباح الجمعة ٨ شعبان ١٤١١هـ (=٢٢ فبراير ١٩٩١م)، وما زال العالَم ينتظر رَدَّ العراق الليلةَ، من خلال (طارق عزيز)؛ إذ ظلّ الحلفاء يُهدِّدون بشَنِّ هجمةٍ بَرِّيَّةٍ شعواء وشيكةٍ، لا تُبقي ولا تَذَر. وكانوا قد زعموا أن هذه الليلة آخرُ مُهلةٍ لقبول العراق الانسحاب من الكويت، أو شَنِّ الهجوم. لكنَّ العراق لا يبدو آبِهًا بذلك، كعادته.

وها هي تي إذاعة بغداد تصفو، على تقطُّع. وها هي تي الأنباء تَتْرَى من هنا وهناك، وتتقاطَع، وتتضارَب...

«شَنَّت إسرائيل اليوم هجومًا على الجمهوريَّة العربيَّة اليَمَنيَّة، مستهدِفةً محطَّة كهرباء»... ذلك ما شَنَّته إذاعة بغداد في نشرة أخبارها.

«...هذا، وقد تمكَّنت المقاوِمات الأرضيَّة البَطَلَة للنَّشامَى في اليَمَن الشقيق من إسقاط الطائرة المهاجِمة، وأَسْر

الطيَّار. جدير بالذكر أن التحقيق الأوَّليَّ مع قائد الطائرة قد أَسْفَرَ عن اعترافه بدَور إسرائيل مع الحلفاء.. والله أكبر!»

الله أكبر.. ولْتَحْيَ الوحدة العربيَّة ومقاوِماتها الأرضيَّة البَطَلَة! وها هو ذا العهد القديم يتجدَّد ثانيةً في ذهن وليد. وقد سَبَقَ للعراق في عهد (نوبختنصَّر) الحديث أن هاجم بني إسرائيل بصواريخ الحُسين والحِجارة، مستهدِفًا المفاعِل النووي وبعض المراكز العسكريَّة، حسب وكالة أنبائه.. والله أكبر!

آهٍ من الرُّعب الذي ينتاب دولةً لم تعرف الحروب! كان الزمن يمضي سلحفائيًّا جدًّا، في تلك الليالي والأيَّام، ويبدو أن أفعى الحرب أطول وأطول. كذا كانت اللحظات تهجس في خَلَد وليد.

بيانٌ عسكريٌّ جديد...

ويضحك وليد بصوتٍ عالٍ على نفسه وعلى مَن حوْله من سكَّان العاصمة، حيث تبيَّن أن ما كان أُعلِن عنه عَصْرَ ذلك اليوم المشهود من هجومٍ على الرِّياض كان في الحقيقة على (حَفْر الباطن)، حيث يوجد الحلفاء ضِدّ العراق. وقد وَقعتْ إصابات في القوّات السنغاليَّة المشاركة [البَطَلَة(؟)].. والله أكبر!

الله أكبر.. إنما يأكل العراقُ من الحلفاء السنغال! لا حول ولا قوَّة الَّا بالله، أخطأَ أمريكا وأصاب السنغال! أ لم يكن ليُسدِّد صدَّام رَمْيَهُ، مِن بين الحلفاء، إلَّا على السنغاليِّين المساكين؟!

على كلّ حال، لم يكن الناس، كلُّ الناس، يأبهون كثيرًا، بتلك الصواريخ، ولا بالصواريخ الإخباريَّة المصاحبة، والأصدق فتكًا ببعض النفوس. فها هو الليلُ يسهر لدى جيران وليد على حفلة عُرس صاخبة. فيما آخرون حاصَروا

أنفسهم ليلًا في الأدوار السُّفلَى من البنايات، أو في الأقبية، تحسُّبًا لحدوث أيِّ مكروهٍ، لا سمح الله! فلا مخابئ ولا ملاجئ، في بلدٍ لم يسبق له أن عرف حربًا كهذه، منذ آدم إلى اليوم!

هكذا بدا وليد يكتب مذكِّراته خلال تلك الأحداث التاريخيَّة الطاحنة، يومًا بيوم، وهذا ما نستخلصه هنا من تلك المذكِّرات اليوميَّة، التي تضمَّنها الكرَّاس المخطوط الذي كان أعطاني إيَّاه. وسأتجاوز عن بعض التفصيلات الشخصيَّة التي كان يُوردها، أو التهميشات التي كان يعلِّق بها، إلَّا ما بدا منها ملتحِمًا بحكايته.

صباح اليوم، الجمعة ٨ شعبان ١٤١١هـ (=٢٢ فبراير ١٩٩١م)، استيقظتُ الساعة الحادية عشرة. وكان أوَّل ما سمعته عن إذاعة صوت أمريكا قبول العراق الانسحاب من الكويت، حسب خطَّة موسكو. وكانت خُطَب الجمعة في

هذا اليوم لا تخلو من الشحن السياسي، والحديث عن سوءات حِزب البعث العراقي، وعن جيش صدَّام وما اقترفه في الكويت من جرائم وموبقات. كان الكويتيُّون في كلِّ مكان، في المساجد، في الشوارع، والبيوت. لم نكن من قبل نراهم إلَّا في المسلسلات والمسرحيَّات، وها هم أولاء الآن بيننا لأوَّل مرَّة.. فيا للروعة!

رُبَّ ضارَّة نافعة- قال صديقي الكويتي الذي تعرَّفتُ به في إحدى المكتبات، وكان قد استأجر شقَّةً قريبةً من شقَّتي- ولأوَّل مرَّة تَعزَّز الإحساس بأن «خليجنا واحد.. وشعبنا واحد.. يعيييش.. يعيييش...»، واقعيًّا!

- وهل كان لا بُدَّ من صدَّامٍ ليتَّحِد الشعبان والدَّولتان، ولو مؤقَّتًا؟! ما ضَرَّهما لو اتَّحدا، وإلى الأَبَد؟!

- لا.. لا، الكويت كويت، والسعوديَّة سعوديَّة، والبحرين بحرين، وقَطَر قَطَر، والإمارات إمارات، وعُمان عُمان، وال.. وال.. وال...

- دُوَلٌ عُظمَى، مستقلَّة هذه، وعلى مرِّ التاريخ، فكيف تتَّحِد؟! (قلتُ ساخرًا). لكن لعلَّ الجمهوريَّة الإيرانيَّة «الصَّفَوِيَّة» تُوَحِّدها تحت جناحها يومًا ما، مبتلِعةً إيَّاها حَبَّةً تِلْوَ أخرى!

- فال الله ولا فالك! يا أخي بين دول الخليج فوارق جذريَّة، مذهبيَّة، وعِرقيَّة، ولغويَّة، وحتى جغرافيَّة، أَنَّى لها التلاشي؟! وكيف تريد أن تَقبل أيّ واحدةٍ من هذه الدُّوَل العُظمَى المستقلَّة على مرِّ التاريخ أن تُضَحِّي بمميِّزاتها النوعيَّة، أو تُفَرِّط في سيادتها الفرديَّة، ونظامها الفريد، القائم برأسه، فيما لو قامت وحدة اندماجيَّة، أو «كونفدراليَّة»، أو حتى اقتصاديَّة، لا سمح الله؟! كلَّا،

ذلك ما لا يُتصوَّر، فإن قبائل العرب لا تتَّحد مطلقًا إلَّا في الكلام، ولو قامت الساعة!

- ولو قامت الساعة؟!

- «عَيَلْ شِنُو؟» كلّ قبيلة ستُحشَر وحدها! [وهو يضحك].. الاتِّحاد غير وارد، «يُبَه»... وأنا شخصيًّا ليس بودِّي أن أصير غير كويتي، وإلى أبد الآبدين!

- إلى أبد الآبدين؟! وما الحلّ؟

- سنبتهل إلى الله، وإلى أمريكا أيضًا، أن يقياننا شرور الصدَّامات جميعًا، القريبة والبعيدة، العاجلة والآجلة!

- لا تُشرِك مع الله إِلَـٰهًا آخر، سُبحانه، حتى لو كان أمريكا! أنت في بلاد الحَرَمَين!

- «اشْ لُون؟»

- أوَّلًا، لازم تقول: «الله»، وتأخذ نَفَسًا طويلًا، ثُمَّ تقول: «ثُمَّ أمريكا».. ثانيًا، كيف تبتهل لأمريكا؟!

- «دارين، يُبَهْ، انّك وهَّابي! شِفتْ؟ لا، وتحلم بوحدة عربيَّة بَعد! يفتح الله!» الله يديم علينا دولتنا «واستغلالنا»، ويحرِّرنا من طاغية بغداد وطغمته! [وكانت تختلط على لسانه حروف القاف والغين!].
- آمين.. ومن كلِّ الطُّغاة والطُّغَم في العالَم!
- يُبَهْ، ترى لولا الله [ثُمَّ] أمريكا- ولا تزعل!- أكلتْ بعض دُوَلْنا المتخلِّفة البربريَّة بعضًا! قُل عنّي: هذا متأمرك، عميل، صهيوني، لكن هذي «الحغيغة»! قبل ما ترفع لي شعارات فارغة يجب أن تكون في مستواها!
- استغفر الله العظيم، إلى هذا الحدّ بلغ إيمانك بأمريكا؟!
- حبيبي، الذي يمنحني فرصة الحياة أؤمن به، ولو كان الشيطان الرجيم!
- أعوذ بالله! لا، أنت جُننت!

- لا تُنكِر أن هؤلاء الذين نسمِّيهم «الكُفَّار» أخلاقيُّون عمليًّا، ومن شَذَّ منهم حَكَمَتْه القوانين، ونحن أخلاقيُّون شعاراتيًّا فقط، ولا قوانين!

- لا يا شيخ؟!

- طيِّب.. خَلِّك في أوهامك! ثُمَّ الحقيقة، شئتَ أم أبيتَ، هي: إمَّا أن تكون قويًّا في هذا العالَم، أو أن يكون لك ظهر قويّ! غير هذا، ستصبح مثل (نمل سليمان)!... على فكرة: ترى أنا طَقَّتْ كبدي منكم ومن سوالفكم، يا الوهّابيين!

- «اشْ لُوْن؟»

- كلما قلتْ: «الله و...»، «نِشب في حلجي» واحد من ربعك، قال: «لازم تقول: «الله ثُمَّ...»!»...

- صادق!

- كيف صادق؟ الله يقول في محكم التنزيل: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّـهِ ورَسُولِهِ والكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ والكِتابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ، ومَن يَكْفُرْ بِاللَّـهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾. على رأيكم كان لازم يقول: «آمِنُوا بِاللَّـهِ ثُمَّ رَسُولِهِ»، «ومَن يَكْفُرْ بِاللَّـهِ ثُمَّ مَلائِكَتِهِ»! والموضوع هنا مسألة إيمان وكُفر، ومع ذلك عَطَفَ بالواو فقط...

- الله يقول ما يريد، لكن نحن لا!

- كيف يكون كتاب دِين، ويستعمل ما يخالف الدِّين، ويُورِد عبارات شِركيَّة، حسب مذهبكم؟! «شِنُو هذا»؟! (ثُمَّ)، «مالَتْكُم»، ما جاءت في القرآن مطلقًا.

- كيف؟

- نعم، جاءت في أمور منطقيَّة. كان الغرض منها الترتيب الزمني، مثل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّـهِ وكُنتُمْ أَمْواتًا،

فَأَحْياكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ثُمَّ لا تنس أنها تتكرَّر في الحديث النبوي عبارة: «الله ورسوله»؛ لماذا لا يقول: «الله ثُمَّ رسوله»؟ ما كانوا يعرفون أصول العقيدة الصحيحة مثلكم؟!

- ما شاء الله! الأخ عالِـم؟

- لا، أستغفر الله، أنا طُويلب عِلم. لا، وأزيدك من الشِّعر بيتًا، واحد أمس قلت له: «الكويت ما لها إلَّا السعوديَّة»، «كان يصيح: «غَلَط، ما يجوز!» قلت: «شِنُو الغَلَط، وليش ما يجوز، يُبَهْ؟» قال: لازم تقول: «الكويت ما لها- من بعد الله- إلَّا السعوديَّة»!»...

- وهو صادق!

- «تَرى أنتم مسَّختوها بتشدُّدكم! ندري أن كلّ شيء هو من بعد الله. وغطاويكم هذه ما قَطْ سمع عنها أحد قبلكم!»

- لا أدري، لكن هكذا علَّمونا، نتبع السَّلَف الصالح.

- السَّلَف الصالح؟ طيِّب! المهم، هذا يدلّك على أن دول الخليج لن تتَّحد، ولا في المشمش. أمَّا العرب والمسلمون، فستقوم القيامة وهم في كل وادٍ يهيمون!

...

هكذا كان جدالي وصديقي الكويتي، نختلف، ونتَّفق.. وهكذا كان يهجِس قلبي، وقلبُ كلِّ كويتي قابلته تلك الأيَّام. وهكذا كانا يبكيان، أو يضحكان، ربما ضَحِكًا كالبكاء!

في ظرف أيَّام من تلك الأحداث غادرَ البلادَ أبناءُ شعبٍ آخَر مجاورٍ. ولْتَحْيَ الوحدة العربيَّة! إذ يبدو أن حضور الإخوة الكويتيِّين كان لا بُدَّ، وَفق أدبيَّات الوحدة العربيَّة المباركة، أن يستدعي، في المقابل، ترحيل الإخوة اليمنيِّين، الذين أقاموا بيننا منذ عرفنا الحياة، وقبل أن نعرف

الحياة. لا شيء في ذلك؛ فكلّنا إخوة والتوسُّع في المجالس أمرٌ مشروع! ترحيلهم جاء لا لذنبٍ اقترفوه، غير أن رئيسهم (علي عبدالله صالح) اتَّخذ الصفَّ الصدَّامي المضادّ! هنا لم يَعُد «صالحًا» نظامُ «الثَّوْر يُضرب لمَّا عافت البقر»، كما قال الأجداد، بل العكس!

وأخيرًا قَبِلَ العراق بالانسحاب من الكويت. لكن ذلك أغاظ أمريكا أكثر، فحدَّدتْ الغَدَ آخرَ موعدٍ للانسحاب، مهدِّدة بشَنِّ هجومٍ بَرِّيٍّ على العراق، متجاهلةً المبادرة المطروحة للسلام؛ فهي لا تريد أقلَّ من الاستسلام، واتَّهمت العراق بتفجير آبار النفط وسياسة الأرض المحروقة.

مُلَبَّدة السماء فعلًا بالغيوم، وما مِن غيوم، لكنه الدُّخان وأجنحة الطائرات، التي تكاد تحجب الشمس.

إنه صدَّام وبُوش (الأب).. وبينهما تَشابهٌ، ولهما من اسميهما نصيبان!

إذن، ليُهلِكا الحرثَ والنسلَ، وليَخسأ الخاسئون!

عندما استيقظ وليد في النهار التالي، السبت ٩ شعبان ١٤١١هـ (=٢٣ فبراير ١٩٩١م)، استمعَ إلى آخِر الأخبار، فاليوم هو يوم الوعد المحتوم.. يوم الموعد التهديدي الذي ضربه بُوش لصدَّام للانسحاب. لا جديد تحت الشمس إلَّا حنين الطائرات، وجَلْجَلَة صوت صدَّام: «وليخسأ الخاسئون!».

الساعة الآن الثامنة مساءً، ولم ينسحب العراق طبعًا، وما زال صدَّام يُردِّد «وليخسأ الخاسئون!»، وما زال العالَمَ يترقَّب الخطوة التالية. وإنْ كان قد لَفَتَ بعضَ الأنظار الإخباريَّة اليومَ خبرُ الإطاحة بحكومة (تايلند) في انقلابٍ عسكري.

...وما لنا نحن؟!

فلينقلب المنقلبون هناك، وليخسأ الخاسئون هنا!

الفصل الثاني عشر

وشُنَّ الهجوم البرِّي الشرس، الساعة الرابعة فجرًا، من هذا اليوم الأحد ١٠ شعبان ١٤١١هـ (=٢٤ فبراير ١٩٩١م). وتَنفَّس بعض المسلمين الصُّعَداء، فمِن الأفضل حسم المعركة في شعبان، قبل رمضان. حقًّا من الحَرَج الدِّيني بمكان أن يقتل المسلمُ أخاه المسلم في رمضان، أمَّا في شعبان، فلا بأس بذاك (عند اللزوم)! وكان ذلك هاجس الجميع خلال الأشهر الفارطة. وكذلك، فإن إنجاز الأمر في شعبان سيُهيِّء الظروف في رمضان لأداء الصيام والصلوات، ومشاهدة المسابقات والمسلسلات، بما في ذلك المسلسلات الخليجيَّة، وتناول التُّمور، والسنبوسة، والقطائف، وغيرها كثير، وذلك في أمنٍ وإيمان، وراحة بالٍ واطمئنان، طيلة

الشهر الفضيل! الحمدلله والله أكبر.. ولا عدوان إلَّا على الظالمين!

ويَشُنّ العراقُ غارةً صاروخيَّةً على الرِّياض في هذا اليوم غير الفضيل، فيَسقط حُطامُ صاروخه من نوع سكود على مَدرسة خالية، بعد تفجيره في الجوِّ بصاروخ باتيريوت، يُقال إنه يكلِّف مليون دولار أمريكي. وتستمرُّ الإذاعات في إطلاق صواريخها الإعلاميَّة، في حربٍ بين الحلفاء من جهة، والعراق والمتعاطفين مع العراق من جهة، حتى باتت الحقيقة غائبةً عن المتابع؛ فكلٌّ يزعم ما يناقض مزاعم الآخَر. وكان الحلفاء قد صاحبوا هجومهم بتعتيمٍ إعلاميٍّ صارم.

يُلقي الآن (المهيب الركن المجاهد القائد البطل صدَّام حسين) خطابًا. وها هو ذا يتَّهم المتحالفين بطعن العراق في الظهر، ويختمه، كالعادة، بعبارته الشهيرة:

«وليخسأ الخاسئون»،

ثُمَّ يُردفها بعبارة جديدة هذه المرَّة:

«...ويا ما حَلَى النصر بعون الله!».

من أعجب ما سمعه وليد في غضون تلك الفترة- كما قال- اتصال شخصٍ كويتيٍّ من (قُبرص) بإذاعة إسرائيل، زاعمًا أن هناك اتِّجاهًا شبابيًّا كويتيًّا واقعيًّا، على حدِّ زعمه، نحو تكوين علاقات مع الكيان الصهيوني، واعتباره قُطرًا شقيقًا! مسفِّهًا الشِّعارات الداعية إلى تحرير فلسطين، أو نُصرة قضيَّته:

ـ «كاهم ملطوعين في الضِّفَّة الغربيَّة، شنو استفادوا؟!»...

ممَّا يشير- كما علَّق وليد- إلى التمزُّق الانتمائي لدى بعض العرب في مثل هذه الظروف التاريخيَّة العصيبة، الذي، لا ريب، يعود إلى سوء التكوين التربوي المرتبط بجذور الأُمَّة وقضاياها، قبل أن يعود إلى أيّ عوامل أخرى.

...وليخسأ الخاسئون!

أُطلِق الليلة أيضًا، حوالَى الساعة ٩:٣٠، صاروخ على الرِّياض، وذُكِر أنه اعترُض وفُجِّر في الجوّ.

كانت (مصر) على رأس المواجهة مع الجيش العراقي. على أن (حُسني مبارك) ذَكَرَ أن قوّاته لن تدخل (العراق).

الله.. يا عيني! «لن تدخل العراق»! إنْ لم تدخل، دَخَلَ غيرها!

وبدأ التحالف الآن إعلان بعض بياناته. ممَّا قالوا أن هذه العمليَّات لن تدوم أكثر من ٣٦ ساعة. إلَّا أن العراق ذكر أنها ستطول حتى نصره، «بعون الله.. وليخسأ الخاسئون»!

لا جديد اليوم، الاثنين ١١ شعبان ١٤١١هـ (=٢٥ فبراير ١٩٩١م)، سِوى أن الحرب البرِّيَّة ما زالت قائمة على قَدَمٍ بلا ساق. الحلفاء يذكرون أنه قُتل منهم فقط ١٢

عسكريًّا، وجُرِح عشرون. تخيَّلوا! ما أقلَّ خسائر الحلفاء! والله، لو كانت خناقة بين حارتين! فيما زعموا أنهم أَسَرُوا من العراقيِّين عشرين ألفًا. أمَّا القتلَى، فعُدَّ واغْلَط! وكانوا قد أعلنوا أنهم استولوا على جزيرة (فيلكة)، لكنهم تراجعوا اليوم عن ذلك. ربما كانت قد «طُهِّرت» منهم، حسب التعبير المحلِّي لإذاعة (بغداد)!

(العراق) أطلق فجرَ اليوم صاروخين على المفاعل النووي الإسرائيلي. كما أطلق صاروخًا على المنطقة الشرقيَّة السعوديَّة، وقَعَ على مبنًى سكنيٍّ، أسفر عن ١٢ قتيلًا، قيل إنهم من «الأجانب»! و«الأجانب» هؤلاء لا يَعْدون أن يكونوا من الاحتياط الأمريكي.

وما الحَرْبُ إِلَّا ما عَلِمتُمْ وذُقتُمُ

وما هُوَ عَنها بِالحَديثِ المُرَجَّمِ

مَتَى تَبْعَثُوهـا تَبْعَثُوهـا ذَمِيْمَــةً

وتَضْرَ إِذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ

فَتَعْرُكَكُمْ عَرْكَ الرَّحَـى بِثِفالِـهـا

وتَلْقَحْ كِشافًـا ثُمَّ تَحْمِل فَتُتْئِمِ

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمانَ أَشْـأَمَ كُلُّـهُـمْ

كَأَحْمَـرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

فَتُغْلِلْ لَكُمْ ما لا تُغِـلُّ لأَهْلِها

قُرًى بالعِراقِ مِن قَفِيْزٍ ودِرْهَمِ

ما حكاية الرقم ١٢؟

في المرَّة الأولى ذكر الحلفاء أنه لم يُقتل منهم إلَّا ١٢ عسكريًّا، والآن صاروخ (العراق) يقتل ١٢ من الأجانب! يبدو أنه لا يأخذهم إلَّا بـ«الدَّرْزَن»! بل الأرجح أن مُعِدَّ الخبر اللَّاحق لم يستبدل ورقة الخبر السابق!

كأن فصل الربيع قد بدأ اليوم، فالرياح تهبُّ بتزايد منذ البارحة.

الساعة الآن ١٢:٤٠ تقريبًا من صباح الثلاثاء ١٢ شعبان ١٤١١هـ (=٢٦ فبراير ١٩٩١م). وذَكَرَ وزير خارجيَّة (بريطانيا) أن الحرب قد تطول، بخلاف ما أُعلن سَلَفًا، وعلى الرغم من مواصلة الادِّعاء بتحقيق الحلفاء أهدافَهم، وحسب الخطَّة المرسومة!

(بيانٌ عسكري):

«صدرت الأوامر العُليا لقوّاتنا المظفَّرة بالانسحاب من محافظتنا في الكويت...».

هكذا أسمعُ من إذاعة (بغداد) حوالى الساعة ١:٣٠ من صباح الأربعاء ١٣ شعبان ١٤١١هـ (=٢٧ فبراير ١٩٩١م).

خلال يوم الثلاثاء ١٢وليلة الأربعاء ١٣ شعبان ١٤١١هـ ، (=٢٦ و٢٧ فبراير ١٩٩١م)، جَرَتْ الأحداث على النحو الآتي:

- اكتشفتُ أنه كان قد أُطلق صاروخ عراقيّ على (الرِّياض)، لكن الإذاعة ما لبثت أن أعلنت عن زوال الخطر. ثُمَّ ذُكر أن صاروخًا أُطلق كذلك على (الدَّوحة)، عاصمة (قَطَر).
- يوم الثلاثاء ظلّ العالَم مشغولًا بقرار (العراق) للانسحاب من (الكويت).. وليخسأ الخاسئون! وقد طالبتْ بعض الدول، وعلى رأسها (الاتِّحاد السوفييتي)، بوقف إطلاق النار، لكن دُوَل التحالف شَرَطَتْ لذلك تَرْكَ المقاتلين العراقيِّين أسلحتهم، أمَّا مَن يُحرِّك منهم أيَّ سلاح، فسيُعدّ هدفًا عسكريًّا سائغًا للقاصفين!

- عمومًا، يُعَدَّ يوم الثلاثاء، ١٢ شعبان ١٤١١هـ (=٢٦ فبراير ١٩٩١م)، يوم تحرير (الكويت) من براثن (العراق).
- (صدَّام) صباح الثلاثاء، يتحدَّث إليكم:

«أيُّـها الشعب العراقي العظيم، لقد انتصر العراق، والله أكبر، وليخسأ الخاسئون! انتصر العراق.. انتصر العراق.. وَفْقَ الاعتبارات المعنويَّة! انتصر معنويًّا، وإنْ كان قد اضطُـرَّ تكتيكـيًّا إلى الانسحاب، لظروف فائقة، نظرًا لوحشيَّـة التحالف!...».

وأقفلتُ المذياع! تكتيكيًّا، قال! تُرى، ماذا كان يتوقَّع صدَّام من التحالف؟ أن يُطَبْطِب على حَدَبة ظهره؟! إنها الحرب، يا صدَّام، «وما هُوَ عَنها بِالحَديثِ المُرَجَّمِ»!

كما ذَكَرَ المهيب الركن المجاهد أن قوَّاته ستُكمل انسحابها بنهاية اليوم. ومع هذا فقد ذُكِر في نشرات الأخبار أن معارك ضارية استمرَّت الليلة، ليلة الثلاثاء ١٢ الأربعاء ١٣، حول مطار (الكويت). وتَتَّهِم (العراقُ) الحلفاء بأنهم يعرقلون انسحابها بضرب قوَّاتها.

- كُنَّا في هذا اليوم التاريخي نشاهد أسرى العراق على الشاشات، «يكسرون الخاطر»، بما في ذلك الخاطر الكويتي. قوافل في إثر قوافل، في المَدَى. ذَكَرَ الحلفاء أن عِدَّتهم بلغتْ ٣٠٠٠٠ استسلموا. كانت جحافلهم على شاشات التلفزة، واضعين أيديهم على رؤوسهم، تبعث الأسى، وتستثير الرثاء، لحالهم وحال عنتريَّات العُربان، ومآلاتها. وما هم في واقع الحال سوى ضحايا رجلٍ قرَّر أن

يتحدَّى العالَم، وأن ينتحر سياسيًّا وعسكريًّا.
شُجاع، نعم، لكنه ليس بالسياسيّ الحكيم.

- في المقابل، بَلَغَ عدد القتلى من الصاروخ المُطلَق على القوَّات الأمريكيَّة في المنطقة الشرقيَّة من (السعوديَّة): ٢٧ قتيلًا، و١٠٠ جريح. أ لم أقل لكم؟! حكاية الرقم ١٢، وأَخْذُ العَدُوّ «دَرْزَنًا دَرْزَنًا»، حكايةٌ غير معقولة. لكن مُعِدَّ الخبر لم يُغَيِّر الورقة!

في تلك الليلة الليلاء سهر مجلس الأمن- أو بالأحرى سهرنا نحن في الشرق- لبحث إمكانيَّة وقف إطلاق النار. واحتدم الخلاف. المشكل أن الحلفاء ما كانوا ليرضوا على ما يظهر إلَّا برأس (غليص)، أقصد: برأس (صدَّام)! وقد توغَّلوا فعليًّا في أرض (العراق) من جهة الجنوب.. أمَّا (حُسني) وجيشه، فيبدو أنه لم يتوغَّل «ولا نيلة»، بحسب

وعده السابق! والخوف أن الحلفاء بقيادة أمريكا يخطِّطون لقسم (العراق) إلى عراقَين: جَنوبيٍّ، عاصمته (البَصْرَة)، وشَمالِيٍّ، إذا لم يستطيعوا الإطاحة بـ(صدَّام بن حسين). أمَّا حلفاء العراق، فتُراودهم الأحلام ليليًّا بأن العراق إنما يُخطِّط بدوره لاستدراج أعدائه إلى أراضيه، ثُمَّ يَنقضّ عليهم في هجوم كاسح! والله أكبر.. وليخسأ الخاسئون!

مع هذا الكرِّ والفرِّ كانت السماء هذه الأيَّام تُغدِق أمطارها السوداء على مدينة (الرِّياض) وغيرها من مدن وقُرَى (نجد) و(الحجاز)، كما صار يسمِّيها الإعلام العراقيّ:

«يا شعبنا اليعربي..

الله أكبر..

مكَّة وقبر النبي..

الله أكبر..

بأرض الحجاز ونجِد..

الله أكبر..

اتلمَّت جيوش الحقِد..

الله أكبر..

ولْـ يحكُم الأجنبي..

الله أكبر..

والف الصلاة ع النبي..

الله أكبر!»

...

أبلَى (سعدون جابر) بلاءً كبيرًا من خلال هذه الأغنية وغيرها في تلك الأيَّام. ولِلْيَعْرُبِيِّين عقولُ أطفالٍ! حين يغضبون، وحين يرضون، عندما يختصمون، أو يصطلحون! لذلك لم تستقم بهم سياسة، ولم تَقُم لهم قائمةٌ وحدة، ولا استراتيجيَّات عملٍ لهم، أو تعامُلٍ بينهم، لا في حربٍ ولا في سلام.

كان ماء المطر محمَّلًا بالقطران، وسموم الطائرات، ودخان النفط، الذي تنقَّبت به الشمس منذ شهرٍ أو أكثر.

وقد صارت هي الأخرى عورةً كلّها في جزيرة العرب وما جاورها، بما يحدث في الأرض والسماء ولما لا يحدث!

جلس وليد لدى الساعة التاسعة من ليلة الخميس ١٤ شعبان ١٤١١هـ (=٢٨ فبراير ١٩٩١م) متقرفصًا أمام التلفاز، يُتابع نشرات الأخبار. وها هي تي الأنباء تتوالَى عن انتقال المعركة- التي نعتها (صدَّام) بـ«أُمِّ المعارِك» ونعتها الخليجيُّون بـ«أُمِّ المهالِك»- إلى داخل (العراق). فاليوم حدَثَ إنزالٌ جويٌّ في (الناصريَّة)، في محاولةٍ تستهدف السيطرة على منطقة (البَصْرَة)؛ لقطع طريق العودة على الحرس الجمهوري والقوات المنسحبة من (الكويت). فيما تجري معارك ضارية في جنوب العراق. وكان من المتوقَّع أن يواصِل التحالف توغُّله شَمالًا؛ إذ رفض البيت الأبيض موافقةَ العراق على ثلاثةٍ من قرارات مجلس الأمن والأُمم المتَّحدة، أو حتى موافقته على أكثر من ذلك. وقد صارت

عبارة «إن هذا الإعلان غير كافٍ لوقف إطلاق النار» أسطوانةً مشروخةً، تتردَّد مهما كانت التنازلات. على أن أوَّل خبرٍ سمعتُه اليوم- كما كتب وليد في مذكِّراته- كان الموافقة على وقف إطلاق النار من الطرفَين.

واليوم تُقام احتفالات صاخبة في (الكويت) بمناسبة التحرير. وكلّ فريق يدَّعي النصر لنفسه. ولقد كان ممَّا «يسطل» بقايا العقول تبجُّحُ (العراق) بأنه هو المنتصر، على الرغم من كلّ ما جرى ويجري! فلقد بلغ الإعلام العراقي حدًّا من الاستخفاف بالعقول لا حياء فيه.

وعاد الناس في يوم الجمعة ١٥ شعبان ١٤١١هـ (=٢٩ فبراير ١٩٩١م) إلى الأدوار العُليا من البنايات، بعد أن اضطرَّتهم نُذُر الحرب وصواريخها إلى الهبوط إلى الأقبية أو الأدوار السُّفلَى. وعادت حركة الناس الاعتياديَّة مساءً في مدينة (الرِّياض).

وحان موعد الأخبار عند التاسعة ليلًا. ومن أهمّ ما جاء فيها «من أنباء» أن اللقاء بين اللجنتَين العسكريَّتَين الأمريكيَّة والعراقيَّة سيُعقد غدًا. كما بعث وزير الخاجيَّة العراقي (طارق عزيز) إلى (ديكويلار) الأمين العامّ للأُمم المتحدة خطاب احتجاجٍ على تزايد القوَّات الأجنبيَّة على أرض (العراق) جَنوبًا، وعلى بعض الأعمال الاستفزازيَّة، كما وصفها!

في تلك الأيـَّام لم يكن هناك من قنوات فضائيَّة، كما سَلَف القول. فليس سوى القناة الأُولى والثانية، ولا ثالث لهما. وكان العباد في البلاد يتطلَّعون إلى أن يفكّ عنهم التلفاز كبتَ الشهور الماضية ومَللها، ببعض الأعمال الترفيهيَّة، ولو بمسلسلٍ تاريخيّ! ولكن هيهات! كلّها برامج إخباريَّة، أو وثائقيَّة مكرورة، أو برامج توجيهيَّة باردة، لا يحفل بها أحد. تحرَّكتْ كُريَّات الدورة الدمويَّة في التلفاز قليلًا، ولكن بعد

أسبوع، فعَرَضَ على الناس مسرحيَّةً ليلة الخميس ٢١ شعبان ١٤١١هـ (=٧ مارس ١٩٩١م) عنوانها «ولد الديرة». كانت مسرحيَّةً لا بأس بها، جدَّدت الروح بعد المَحْل في فترة الحرب.

في سِنيِّ القحط الإعلاميّ تلك، كان التلفاز ربما بقيَ أشهرًا على وتيرة واحدة، لا يُقدِّم المسلسلات، ولا الأغاني، ولا حتى برامج الأطفال المعتادة. وذلك حسب الظروف. ففي بعض السنين يمتدّ صيامه من رمضان حتى محرَّم أو صَفَر. لا برامج، إلَّا أحاديث دِينيَّة مملَّة، أو مقابلات بالية، أو أخبار لا تُسمن ولا تُغني من جوع. والناس صابرون، محتسبون، في بلادٍ حارَّة صيفًا باردة شتاءً، بلا مسرح، ولا سينما، ولا أماكن ترفيه، ولا حُرِّيَّة فَنّ، ولا حُرِّيَّة تعبير. وَرِثَ تاريخًا عريقًا من الممنوعات، والمحرَّمات، والمعيبات، بدءًا من القهوة، التي كانت من المحرَّمات ذات يوم، إلى

«المخزي»، أي «التِّتن» أو الدُّخان، وصولًا إلى الراديو، والتليفون، والتصوير، والسينما، والتلفزيون، والعياذ بالله!.. العياذ بالله من كلّ الدنيا وما حملت! لا بُدّ، إذن، من درء المفاسد، ولا سبيل إلى درء المفاسد درءًا مبرمًا إلَّا بدرء الحياة نفسها، وإلغاء جميع مظاهرها، جملةً وتفصيلًا! وإنْ كانت الفتاوَى قد ظلَّت تترَى لإيجاد التخريجات والحلول بشأن شرورٍ عصريَّة كثيرة ظهرت في البرّ والبحر والجوّ، ولم يعُد منها بُدّ؛ فالرسمة، مثلًا، يكفي أن يُفْصَل الرأس عن الرقبة بفراغٍ أو بخطَّين؛ أي أن تُذبَح لتنتفي عنها الحياة! وهكذا كانت الرسوم في المناهج المدرسيَّة.

يا الله، ما أسهل الحلّ، وما أذكاه!

أمّا الصورة الفوتوغرافيَّة، فليست سوى حبسٍ للظلّ، وليست صورة! وبناء عليه، فلا بأس بها، مع الاقتصاد في غير ضرورة، والمواظبة على عبارة: «والعياذ بالله!» إلى آخِر

هذه الفتاوَى الجديدة التي فرَّجت كُرَبًا دنيويَّة وأُخرويَّة كثيرة كانت تحيط بالأُمَّة وتُقِضّ ضمائرها. حتى أَذِنَ الله بامِّحاء تلك المِلَّة المتشدِّدة، بل ظهر ما يُشْبه مِلَّةً نقيضةً للسابقة على طول الخط، بحيث صار فيها معظم ما كان بالأمس القريب حرامًا، ومنكَرًا، لا حلالًا فحسب، بل مطلوبًا أيضًا، ووسيلةً من وسائل التديُّن والدعوة! ولذلك لم يكن من فراغٍ، في بيئة كتلك، أن تزدهر محلّات الفيديو، وتجارة الأفلام الهابطة، وتجارة الحبوب المهلوسة كذلك، وتجارة المخدِّرات. هذا في الوسط الشعبي البسيط، أما في الطبقات العُليا المركَّبة، فهناك عوالم أخرى، تعيش في كواكب أخرى من الفساد، ولا تتردَّد فيها عبارة «والعياذ بالله!» على الإطلاق.

أجل؛ فلكلّ فعلٍ ردَّةُ فعل، مساويةٌ له في القوَّة مضادَّةٌ له في الاتّجاه، حسب القانون الثالث لـ(نيوتن). وعلى الجبهة

المقابلة، أخذتْ تزدهر تجارة الجهاد، كما يُسمَّى من بعضٍ، والإرهاب كما يُسمَّى من بعضٍ آخر، بمختلف صورهما وأشكالهما، فكريَّةً واجتماعيَّةً ومسلَّحة. فكَبْتٌ مثل ذلك لا يولِّد إلَّا انفجارًا مثل هذا؛ إذ يشعر المرء أنه محاصرٌ في فكره، وكلامه، وتصوُّراته، وآرائه، وتصرُّفاته؛ محسوبةٌ عليه الأنفاس، ولا بُدَّ له من أن يمشي على سراطٍ مستقيمٍ مرسومٍ، كبهلوان سِرْكٍ مفروض عليه أن يمشي على خيطٍ رفيع، معلَّق بين السماء والأرض! يحاسَب على كلّ حرف ينطق به، ويُغرس في وجدانه منذ الطفولة شعورٌ راسخ بالحقارة، وبالذنب، وبالإثم، وبالنقص، وبالجهل، وبسوء الأدب، وأنه على خَطَرٍ عظيمٍ دائمًا، يهوِي في مهلكةٍ من نار جهنم لا يعلم قعرها إلَّا الله، إنْ هو نَطَقَ، أو نَظَرَ، أو ضَحِكَ، أو فَكَّر، أو هَجَس، أو حَلُم، يقظةً أو منامًا.. والعياذ بالله!

في أحياء (الرِّياض)، وغيرها من المدن، كان الترقُّب الحَذِر هو غذاء الناس اليومي. وقد عاد بعض الناس إلى ديارهم سالمين، بعد هجرتهم إلى الجَنوب خوفًا من الصواريخ الصدَّاميَّة.

يجلس وليد يَرقب الأخبار، أو يتنقَّل من غرفة إلى غرفة، ليلتقط موجات البثِّ، حاملًا مذياعه الأسود الصغير الحجم، من نوع (سوني)[١] الذي كان قد ابتاعه من أحد المحلَّات في أمريكا قبل عودته إلى البلاد. كان يجوب المسافات بين غُرَف البيت، وهو ينقِّل المذياع ما بين أُذنَيه، حتى إذا ما تعبتْ إحداهما من أزيزه وطنينه نقله إلى الأخرى. لقد كان ذلك النوع من أجهزة المذياع فاكهة الصناعة اليابانيَّة تلك الأيـَّام، وخير وسيلة لمتابعة آخِر المستجدَّات. وبين حين وآخر، كان يتأمَّل الشارع من نافذة شقَّته. فقد كانت الأحداثُ تلك نقاطَ تحوُّلٍ في حياة الناس. بناءً عليها تتقرَّر

الإقامة والسَّفَر، والعمل والعُطَل، وانتظام المدارس وتوقُّفها. وكان الإعلام المحلِّي كلُّه أيـَّامئذٍ مُعَبَّأً، ومُمِلًّا جدًّا، حتى للقائمين عليه والمستفيدين منه. يُردِّد أسطوانةً واحدةً لا غير، بإذاعته، وتلفازه، وصُحفه. اختنقتْ كلُّ المُـتَنَـفَّسات الثقافيَّة السابقة، على ضحالتها وشُحِّها، ومُحِيَ مَحْوًا من كلِّ الصُّحف ما لا ينصبّ في خدمة القضيَّة الكبرى والتعبئة العامَّة.

تَمَّ الاتفاق في اللقاء العسكري بين التحالف و(العراق) على كلِّ شيء. وتُبودل الأُسارَى، والأمور فيما يبدو تتجه نحو السلام. كم كان مؤسِفًا، ومحزنًا، رؤية هؤلاء العرب الأشاوس العراقيِّين وهم يجلسون في مواجهة الجنرال (شوارسكوف)، ينظر شزرًا، وكأنما هو يُملي شروط ما يريد كما يريد. لكنها توريطة (صدَّام)، وجنون سياسته الهوجاء.

ونشبت القلاقل في الجَنوب العراقي كالعادة وفي الشَّمال. وسيطر المتمرِّدون الشِّيعة في الجَنوب على بعض المدن، كـ(البَصْرَة)، والانفصاليُّون (الأكراد) في الشَّمال، على مدن أخرى، كـ(السليمانيَّة). لكن سُرعان ما جاءت الأخبار عن استعادة الجيش العراقي والحرس الجمهوري السيطرة على البَصْرَة. وهو في سبيله إلى السيطرة على بقيَّة المواقع.

في هذا اليوم، الأربعاء ٢٠ شعبان ١٤١١هـ (=٦ مارس ١٩٩١م)، يُعيِّن (صدَّام حسين) ابن عمه (علي حسن المَجيد) وزيرًا للداخليَّة. ونِعْمَ الاختيار! فالرجل المناسب في المكان المناسب! بالأمس كان المَجيد مطفئ الحركة الكُرديَّة بالكيمياوي، حتى استحقَّ لقبه الفريد (علي الكيمياوي)، لما وقع من جريمة (حلبجة). ذلك ما تناهَى إلى الأسماع عن الرجل، والله أعلم بالحقائق! لكن ما نحن منه متأكِّدون أن المَجيد كان نسخةً شِبه «كوبونيَّة» من صدَّام،

وأنه كان محلّ ثقته؛ ولذا كان محافِظَه في محافظة (الكويت)، كما كانت تُسمَّى إبَّان الاحتلال. الكويتيُّون يسمُّونه «غَزْوًا»، عادةً، لا «احتلالًا». والكويتيُّون في الجُملة عربٌ أقحاح، وعُروبيُّون صميمون، على الرُّغم ممَّا حاق بهم تحت شِعار «القومجيَّة» العُروبيَّة، وأخواتها، وخصيماتها.

الخبر الساخن في هذه الأيـَّام إعادة (العراق) منهوباته من الكويت، أو وعده بإعادتها. غير أن الأكثر سخونة أن آبار النِّفط الكويتيَّة ما تزال مشتعلة. وإنَّ ألسنة اللهب المتصاعدة منها لتُشْبِه تلك التي تُرى مندلعةً عن قُرص الشمس في الصُّوَر الفلكيَّة. أمَّا الدُّخان، فجبالٌ في إثر جبال متدافعة.

في أجواء الواقع المحتدم القاتم هذا، تخلَّقتْ أجواء ثقافيَّة مضطربة كذلك. كَشَّرتْ فيها عن أنيابها مشاعرُ وتوجُّهاتٌ: ولاءاتٌ، وعداواتٌ، وثارات. كانت الحِوارات

حول الأزمة الخليجيَّة تُعرِّي حَيرةً عارمةً، وعجزًا أحيانًا عن استيعاب ما حدث ويحدث أو سيحدث. يُحيط بطاولاتها عِيٌّ سياسيٌّ عامٌّ في اتخاذ مواقف فكريَّة سليمة، وذلك لغياب الحُرِّيَّات الكفيلة بقبول الرأي المخالف. النفوس والعقول هنا يجب أن تكون معبَّأة على الجبهة هناك، ومن شَذَّ، شَذَّ في النار! لا هامش للتفكير السليم، أو اتِّخاذ الرأي المستقلّ الحُرّ. وإذا كان هذا هو واقع الحال من قبل، فإنه، وقد حَزَبَ الأمرُ الجَلَل، أشدُّ قبضةً على زمام الرؤى والأفكار من أيّ وقتٍ مضَى. وتلك معضلة المثقَّف العربي، بل الإنسان العربي أصلًا، في كلّ خَطْبٍ، وبغير خَطْب. إنه يفهم ما حوله، ويعي الحقائق المحدِقة، غير أن شَفَتَي نظامه تُملي عليه ما يكون، وكيف، وعصا الأحداث تقمعه، وظِلال الأوضاع تُـجَغْرِف مواطئَ قدميه، وأخفاف الضغوط الخارجيَّة تَهْرِسُ شخصيَّته. فتراه وقد لُزَّ إلى المداجاة لَزًّا، حتى وَصَلَ إلى

درجةٍ كوميديَّةٍ يُصدِّق فيها مداجاته، وإنْ لم، فإنك ستشهد تراجيديا لتمزُّقه كلَّ ممزَّق بين ما يُظهر وما يُبطن.

وجاء رمضان. جاء شهر الصوم والغفران. جاء، ولكن هل من صومٍ أو غفران؟ المسلمون يعتقدون أن هذه المواسم مناسبات لابتزاز الله، سبحانه، والتعامل مع جلاله تعاملهم مع حُكَّامهم ومحكوميهم، بالكذب والنفاق والتملُّق. تراهم سُجَّدًا رُكَّعًا يبتغون رحمةً من الله وفضلًا، حتى إذا انفضُّوا سَفَكُوا الدماء، وأهلكوا الحرث والنسل. آلله يقبل الرُّشَى؟! هكذا سذاجة العقل الإسلامي السائد.

وعاد صنبور الأعمال الفنِّيَّة الترفيهيَّة في رمضان إلى التقاطر. ومن عَجَبٍ أن هذا الشهر بالذات لا يحرمه الإعلام العربيّ الترفيه، والترفيه الصاخب جِدًّا، والتافه جِدًّا، الذي يستحيل إلى مِسماجةٍ شعبيَّةٍ عامَّةٍ لمدَّة ثلاثين يومًا، أو تسعة وعشرين يومًا، حسب رؤية الهلال. ورؤية

الهلال هذه، يا سادة يا كرام، يجب أن تكون بالعَين المجرَّدة، لتَثبت بناء على تلك العَين الفريدة كلّ شؤون العباد والبلاد. إنها رؤية خارقة للنواميس، تُحدِّد علاقة الأرض بالسماء، وتُحدِّد عِيْد فِطر المسلمين، أو صومهم، ومن ثَمَّ تحسم تاريخ المسلمين اللَّاحق. ويا لها من عَينٍ تاريخيَّة، ما زالت المؤسَّسة الدِّينيَّة السَّلَفيَّة لا تعترف بسواها؛ لأنها لا تعترف بما لم يفعله القدماء، ولم يعرفه القدماء، ولم يكن مهيَّـئًا في عصر القدماء، من بِدَع العِلْم والتقنية الحديثة. ولذلك يجب أن يُرى الهلال بالعَين المجرَّدة فقط لتثبت الأمور في نصابها. وقياسًا على نظريَّتهم تلك، فلا تصحّ الرؤية، إذن، بنظَّارة طبيَّة؛ فالسَّلَف لم تكن لديهم نظّارات طبيَّة ولا يحزنون، وإنما هي من إختراعات الغرب الكافر، عليه من الله ما يستحقّ! والنظَّارات، إنْ جاز أنْ يَرى بها ضعيف البصر الطريقَ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، فلا يجوز أن يشهد بأنه رأى الهلال،

وهو إنما رآه من خلال نظَّارة، ما عرفها السَّلَف، ولم يستعملوها؛ فذلك مخالف للقاعدة الأبديَّة في الرؤية. تلك هي الرؤية الثاقبة للأمور لدينا، مع أن نصّ الحديث إنما قال: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته». ولم يقل: «صوموا لرؤيته بأعينكم المجرَّدة، وأفطروا لرؤيته بأعينكم المجرَّدة»! كلّ ذلك واضح لكلّ ذي عينَين عقليَّتَين مجرَّدتين. لكن كلّا، مَن قال إن الدِّين يُؤخَذ بالعقل، والعياذ بالله؟! الدِّين إنما يُؤخَذ بالتقليد والاتِّباع لما وجدنا عليه آباءنا من سَلَفنا، «الصالح» دائمًا وأبدًا، وإن تنافَى مع عقولنا!

أجل، جرت العادة أن تُعَدَّ موائد رمضان بكلّ الوسائل الإعلاميّة، ومهما جاءت الظروف. إنه شهر الاستثناء الإعلاميّ.

لأمرٍ في نفس الصنبور الإعلامي عُرِض على الناس في هذا الشهر الفضيل جِدًّا (مسلسل أشعب)! ربما لمناسبة هذا

المسلسل لشهر الصوم، أو لمواكبته الأحداث الجِسام، والإيماء إلى أشعب (العراق: صدّام حسين)، الذي ابتلع (الكويت) دون ماء! مهما يكن من مسلسل، فالمهمّ في نفوس الناس، المنكودين المكبوتين، كان أن التلفاز أخيرًا عاد إلى طبيعته في رمضان، بعد صومٍ منه طويلٍ في غير شهر الصوم.

وما انفكَّت المعارك بين الجيش العراقي والمعارضة على أشدِّها، وإنْ بدا أن الكفَّة تميل لصالح الجيش، طبعًا. والسبت القادم ١٤ رمضان ١٤١١هـ (= ٣٠ مارس ١٩٩١م) موعد اجتماعٍ عربيٍّ في (القاهرة). وقد صرَّح (العراق) أنه سيحضره. وكان صدُّومي قد ألقَى خطابًا في بداية رمضان نَدَّدَ فيه بما أسماه «الغزو الداخلي»! العجيب في هذا الرجل أنه كان الرائد بين العرب في إحياء مصطلح «الغزو»- بعد أن كاد ينقرض من قاموس الأجيال العربيَّة

الحديثة- فهو الذي يغزو البلدان، ويحتلُّها، ويضمُّها، وينادي بإعادة الخلافة العباسيَّة، تحت صولجانه الرُّوسيّ! كما أشار في خِطاب «الغزو الداخلي» إلى دَوْر (إيران) في الغزو. وكانت العلاقات مع إيران قد عادت إلى توتُّرها. فيما تحسَّنتْ نسبيًّا بين إيران و(السعوديَّة)، وبين (مِصْر) وإيران. وتلك الأيَّام نُداولها بين الدُّوَل!

منذ ذلك التاريخ وشِبه الجزيرة العربيَّة تشهد عواصف غبارٍ غير مشهودة من قبل. غبار لا كالغبار، محمَّل بالسموم والملوِّثات المختلفة. وانتشرت الأمراض الغريبة بين الناس، ولاسيما السرطانات. وأُثيرت الأتربةُ وغبار الشائعات حول مواد مُشِعَّة كانت القوَّات الأجنبيَّة، الأمريكيَّة بصفةٍ خاصَّة، تهملها، أو تدفنها في بعض الجهات. صار أمرًا مألوفًا أن يسمع الناس بنُفوق الإِبِل وغيرها من الحيوانات هنا وهناك. وصار أمرًا مألوفًا أن يكون وسيط

موت الناس المفضَّل لدى عزرائيل، عليه السلام، الإصابة بمرض السرطان. وما عاد ثَمَّة من شكٍّ لدى عامَّة الناس، وربما خاصَّتهم، أن لتلك الظواهر علاقة بتلك السنة المشؤومة، سنة غزو (الكويت) من قِبَل (العراق)، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

ما هو إلَّا شهر تقريبًا على انجلاء الغبار في أُمِّ المعارك الكويتيَّة، حتى أَخْمَدَ (صدّام) المعارضة، واتَّفَقَ مع (الأكراد) على حُكمٍ ذاتيّ. وما زالت قوّاتٌ مشتركة في الشَّمال والجَنوب، ومناوشات استفزازيَّة بين الحين والآخَر.

من جهةٍ أخرى، بدأت تتناوش الرئيس (بوش) الشائعات! ومنها أنه كان احتال في سبيل تولِّي (رونالد ريجن) عام ١٩٨٠ الرئاسة الأمريكيَّة ضِدّ منافسه (جيمي كارتر)، وذلك بإبرام صفقة سِريَّة مع (إيران) لتأخير إطلاق الرهائن الأمريكان هناك إلى ما بعد فوز ريجن. وتناهَى إلى

الأسماع في يوم الأحد ٢١ شوّال ١٤١١هـ (=٥ مايو ١٩٩١م) أن وعكةً قلبيَّةً أَلَـمَّت بالرئيس الأمريكيّ المسكين، الذي «فَقَعُوا» قلبه بالشائعات، بعد حرب (الكويت)!

الاثنين ٢٢ شوّال ١٤١١هـ (=٦ مايو ١٩٩١م) عاد الرئيس (بوش) إلى البيت الأبيض، غير أن قُليبه ما زال يهذي في نبضاته.

في تلك السنين العجاف زاد الشكُّ، وزاد التردُّد، وانبرى كلٌّ يُدافع عن عقيدته، أو غَسول دماغه. في تلك السنين تعدَّدت وجهات النظر، ربما لأوَّل مرَّة في جزيرة العرب. زاد الشكُّ في المعتقدات السابقة، وزاد التردُّد في التعبير عن وجهات نظر جديدة، بات إعلانها مصادَمةً للآخَرين.

ظلَّ وليد في أثناء ذلك المخاض العسير يشعر بالاغتراب الفكري، وتنامَى إحساسه بهُوَّةٍ اجتماعيَّة تفصله عن الآخَرين. كان يُلفي نفسه مختنقة مع دهماء من الناس، أو غير دهماء. وكأنه هَبَطَ من كوكبٍ آخَر، أو كأنهم هم كذلك. فالإنسان في مثل تلك الأجواء، بخلفيَّاتها الاجتماعيَّة والثقافيَّة، يُرغَم على سماع أحاديث وآراء، ومشاهدة سلوكيَّات فكريَّة، مجامِلًا حينًا، وساكتًا- يُحصِّن عقله بالحَيِّ الذي لا ينام من عدوَى الروح الغوغائيَّة- حينًا آخر. وكان يكتشف في مثل تلك المواقف سحابيَّة الأبراج العاجيَّة التي تُقِلُّ المثقَّف عمَّا يدور حوله، وبين يديه، ومن فوقه، ومن أسفل منه! الهُوَّة مخيفة بين ما يُعايشه من أفكار وبين مَن يعايشهم من خَلْق. وكان ما يَحُوْل بينه وبين المجالس الاجتماعيَّة هو ذلك الوباء. وهو وباءٌ حقًّا، يُعْدِي، حتى إنه كان لا يلبث أن يشعر بنفسه واحدًا من الآخَرين، يُحاكِم

أفكاره إلى أنماط ممَّا استنشقه بمجالسهم. كان يرى بُعْدَ ما بين ما يقرأ وما يكتب وما يفكِّر فيه وبين المحيط الذي يتقلَّب فيه؛ فتشعر نفسه بإحباطٍ، يوشك أن يرتدّ معه عن كلّ اقتناعاته المتفائلة، فيرتكس كسيحًا كالذين حوله من المخلوقات؛ وكأن ذلك ما كان إلَّا حُلمًا استيقظ منه على أصداء الواقع.

مُنِح (نورمان شوارسكوف) وِسامًا من درجة (سير/فارس) من (بريطانيا) لجهوده في تحرير (الكويت). كان هذا في يوم الجمعة ٣ ذي القعدة ١٤١١هـ (=١٧ مايو ١٩٩١م). هذا فوق ما استأهله الفارس المغوار من أوسمة أخرى من (الولايات المتحدة الأمريكيَّة)! «مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ»!

وإنْ هي إلَّا أشهر ويحدث انقلابٌ في الاتِّحاد السوفييتي، ويُطاح بـ(ميخائيل سيرغيفيتش غرباتشوف)،

«مكنسة أمريكا»، الذي شغل منصب الرئيس الأعلى لاتِّحاد الجمهوريَّات الاشتراكيَّة السوفييتيَّة منذ ١٩٨٨ إلى ١٩٩١، وصاحِب نظرية (إعادة البناء) أو «البريسترويكا»، الحاصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٠. ثُمَّ عاد (غرباتشوف) ثانية إلى الرئاسة. وهكذا كانت حالة الاتِّحاد الروسي حالة، خلال شهر (صفر ١٤١٢هـ= أغسطس ١٩٩١م)! ولقد بدأتْ تتحقَّق أُولى ثمار نظريَّة غرباتشوف في ٢٦ ديسمبر ١٩٩١ بتوقيع (بوريس يلتسن) على اتفاقيَّة حَلّ اتِّحاد الجمهوريَّات السوفييتيَّة الاشتراكيَّة، ليُصبح ما كان يُسمَّى (الاتِّحاد السوفييتي) أثرًا بعد عَيْن.

أمَّا على الصعيد العربي، فافتتحتْ يوم الأربعاء ١٨ صَفَر ١٤١٢هـ (= ٢٨ أغسطس ١٩٩١م) المرحلة الأُولى من النهر الصناعي العظيم في (الجماهيريَّة العُظمى الليبيَّة)، بحضور عدد من رؤساء الدول. وكلّ شيءٍ كان هناك في

(ليبيا) «عظيمًا»، من العقيد المناضل إلى آخر «زنقة» في الجماهيريَّة العُظمى!

وتَـمُـرُّ الأيـَّام بالحظر الجويّ على جَنوب (العراق)، ومآسي (البوسنة والهرسك)، و(المجاعة الصوماليَّة)، والحرب، والسلام، وزِلزال (القاهرة)...

ولا جديد تحت الشمس إلَّا الرَّمل والقَيْظ والجرابيع!

الفصل الثالث عشر

وبعد أن وَضَعَتْ الحرب أوزارها، الثقيلة والمتَّسخة، فاستقرَّ ما استقرَّ، واغبرَّ ما اغبرَّ، قرَّر وليد أن يسعى في مناكبها من جديد. لم يكن يحمل شهادةً تؤهِّله لعملٍ مناسب. فلم يكن ليُقبَل في سِلك التعليم، ولا القضاء، طبعًا، ولا الأمن، ولا سبيل إلى عودته إلى عالم الطيران؛ وقد تخلَّى عن هذا المجال، وطارت بأرزاقها الطُّيور، وجاءت أزمة الخليج والحرب فهبَّت عواصفها بما تبقَّى من آمال.

التحق بإحدى الجامعات في (جُدَّة)، دارسًا علوم الإدارة والاقتصاد. وما هي إلَّا بضع سنوات وحصل على شهادة البكالوريوس. وها هو ذا يلتحق بوظيفة حكوميَّة. ولكن هل سيكفُّ عن مزاولة نقده، ومصادماته لما حوله ومَن حوله هذه المرَّة؟

لقد كان وَطَّن نفسه على أن يَكُفّ، وأن يَرْقَـأَ على ظَلْعِه، مُعْرِضًا عمّا يدور حوله، مهما كان. حتى كان ذلك اليوم الذي كان له بالمِرصاد!

ذات يوم، بعد سنوات من عمله، وَقَعَتْ بين يديه أوراق تُثبت أن مسؤولًا قياديًّا كبيرًا في الجهاز الذي يعمل فيه يستغلّ منصبه لتوظيف أقاربه، وتقديمهم على مَن سواهم، دون مسوِّغٍ واضحٍ سوى القرابة. إضافةً إلى إلمام وليد- وهو الإداري الاقتصادي- بمخالفات أخرى لذلك المسؤول تتعلَّق بتأجيره مبانيَ وعقارات متعدِّدة للحكومة، وكذا فوزه بعُروض كثيرة، عن طريق نفوذه وبمحض علاقاته، وإنْ كان يؤجِّر بأسماء أخرى، إمَّا لبعض زوجاته، أو لبعض أقربائه، لا باسمه الشخصيّ، تمويهًا على اسمه الظالع الضالع في تلك الشبكة التي يُديرها، كما يُدير لاعب

«الأراجوز» عرائسه بالخيوط بين أنامله. وهو ما حوَّل الجهاز الذي كان يعمل فيه إلى شِبه شركة عائليَّة!

- إنه الفساد الإداري والمالي! (قال في نفسه).

وما أن وَقَعَتْ بين يدَي وليد تلك المستندات والشُّبهات، حتى هَبَّ إلى معالي المسؤول الأعلى، بعد أن حاول حجز موعدٍ لمقابلته، مُحضِرًا ملفًّا كاملًا بتلك المستمسكات الخطيرة.

- قهوة أم شاي؟

- لا قهوة ولا شاي، شكرًا! أما زال معاليه مشغولًا؟

- مشغول جدًّا اليوم. (رَدَّ أمين مكتبه). قد يكون من الأفضل أن تأخذ موعدًا آخر.

- موعد آخر؟! لي شهر لم أتمكَّن من مقابلة معاليه، والأمر جِدٌّ خطير!

- أنت تعرف يوم الثلاثاء: اجتماعات، وضيوف، و...

- سعادتكم من أعطاني الموعد للساعة الواحدة بعد الظهر، وأرجو أن تُخبر معاليه أن الأمر مهمّ، ولا يحتمل التأجيل!

- مهمّ ولا يحتمل التأجيل؟ يا ساتر!

- نعم، مهمّ ولا يمكن تأجيله.. أرجوك!

- سأحاول.

يُهاتف أمينُ المكتب معاليَه، وبعد طول انتظار يجيب معاليه باقتضاب شديد.

- حاضر.. حا.. حا.. حاضر، طال عمرك، حاضر!... آسف، معاليه لديه ضيوف مهمُّون. وقد رفض حتى أن يسمع ما أقول.

- والآن؟

- ليس في إمكانك إلَّا الانتظار.

- الساعة الثانية إلَّا ربعًا...

- آسف! على كلّ حال، أتوقَّع أن يغادر ضيوف معاليه بعد نصف ساعة بالكثير. قهوة أم شاي؟

- في هذه الحال، غداء، إذا أمكن!

- لا، هذه صعبة هنا.. (وضَحِكَ سعادة الأمين).

انهمك سعادته بين أوراقه، ونسي وليدًا. ووليد انهمك في تأمُّلاته في واقع هذا العالَم العجيب، الذي لا قيمة للزمن لديه، ولا احترام للمواعيد. حياة تمضي هكذا سَبَهْلَلًا، وبالبَرَكَة، ولا بَرَكَة! إذا قال لك أحدُهم: «قابلني بعد الظُّهْر»، فذلك يعني موعدًا مفتوحًا، (من الظهر إلى العصر). وستكون محظوظًا جِدًّا إذا استطعتَ مقابلة المسؤول خلال تلك الفترة. وبعض المسؤولين له بابٌ خلفيٌّ؛ فقد تنتظره ساعات، لتكتشف أنه قد تَسَرَّب من مكتبه خلال بابه الخلفي! أمَّا «راجعنا بُكرة»، فمتعة الدوائر

الحكوميَّة الكلاسيكيَّة في ممارساتها الساديَّة على المواطنين، أو حتى على صغار موظَّفيها!

«لا احترام للإنسان في هذه الدِّيار!» هَجَسَ وليد، منتفِضًا على صوت همهمات معاليه وضيوفه خارجين من المكتب. يَعْتَوِرُه القَلَق، خوفَ أن يكون- في أحلام يقظته تلك- قد فاه بما دار في نفسه من حيث لم يشعر. وازداد اضطرابًا لمرأى أولئك «العتاولة» من الضيوف الذين لا يدري من أيِّ كوكبٍ هبطوا، بكبريائهم وخيلائهم وازدرائهم مَن حولهم.

وَقَفَ وليد مَشْدُوْهًا، «كالفَرْخَة المسلوقة»، فيما كان يذوب في ثيابه، إذ تُقهقه من حوله الأفواه، وتَضِجُّ في المكان عباراتُ التَّحايا التوديعيَّة، وضَرْب المواعيد بين معاليه وضيوفه الكرام.

وبعد أن انفضُّوا، عاد معاليه أَدراجه إلى مكتبه العملاق.

- أستطيع أدخل الآن؟ (سأل وليدٌ أمينَ المكتب).

- انتظر قليلًا لأدخل إليه ثُمَّ أخبرك.

كانت الساعة حوالَى الثالثة إلَّا ثلثًا.

- معاليه يقول لك: تفضَّل، ولكن، رجاءً، اختصر؛ لأنه سينصرف بعد دقائق.

وأخيرًا دخل وليد مكتبَ معاليه في ذلك الصيف القائظ من أيـَّام (جُدَّة). الفخامة التُّركيَّة في أثاث المكتب عالمٌ آخر. تَعْبِق رائحة العُود الهندي الزكيَّة في جنبات المكتب. وخُيِّل إليه لدى دخوله أن الجوَّ قد تحوَّل هكذا فجأة من صحوٍ حارٍّ إلى جوٍّ غائمٍ ماطرٍ بارد. كيف حدث هذا؟ كيف تحوَّل الطقس في مدينة جُدَّة بغتة على هذا النحو إلى شِتاء؟! شَكَّ في علاقة الداخل بالخارج. وأوشك

بالفعل أن يُصدِّق، في ذلك المكتب عالي التكييف، أن الأجواء قد تحوَّلت بمعجزةٍ من صيفٍ إلى شِتاء.

هَمَسَ معاليه، كمن يُوحي إليه من وراء سحاب، وهو يحدجه بعينَيه المثقلتين الناعستين مِن فَوق نظَّارته السميكة المقعَّرة، التي تجعل عينَي معاليه أشدَّ رُعبًا في نفوس رعاياه من الموظفين، ناهيك عن عامَّة المواطنين، إنْ قُدِّر لهم أصلًا أن يروا ذات يوم تَينك العَينين مباشرةً.

- لديَّ.. لديَّ معلومات مهمَّة، يا معاليك!

- معلومات مهمَّة، يا معاليك؟! اجلس، وهات ما لديك!

رَدُّه المستخِفّ الساخر لم يُشعِر وليدًا بالاطمئنان، وهو الذي توقَّع الاهتمام، وظنَّ أن يكون تقديره من قِبَل الإدارة العُليا أفضل، على كلِّ حال. بَلَعَ بقايا ريقه، وتشجَّع وجلس

على طَرَف كَنَـبَةٍ وثيرةٍ، غاصَ فيها إلى المنتصف، ثُمَّ قال، وهو يَشرئبُّ بعُنقه إلى معاليه ويُحملق بعينيه، كطائر الإيمو:

- معاليكم، أنا- طال عمرك- مسؤول تدقيق في إدارتي، وقد تبيَّن لي مؤخَّرًا أن هناك مستندات خطيرة، فوجدتُ من واجبي أن أُطلِع معاليكم عليها شخصيًّا.

مرَّت دقيقة تقريبًا دون إجابة، وكأن معاليه في عالَمٍ آخَر، وكأنه لا يسمع ما حوله. قال، كمن يستيقظ من نوم:

- مستندات خطيرة، مرَّة واحدة؟! قل، يا أخي، بسرعة! السائق ينتظرني! (قال ذلك وهو ينفث الدُّخان باتجاه هواء المكيِّف، ويعبث بين أصابعه بمسبحةٍ ذَهبيَّةٍ مطعَّمة بالياقوت. غَيْرَ مُعيرٍ وليدًا أَيَّ اكتراث).

- هناك شخصيَّة قياديَّة، يا معاليك، يبدو لي أنه يقوم باستغلال منصبه لأغراضه الشخصيَّة؟

استدار معاليه إلى وليد هذه المرَّة. وحَدَّق فيه بعينين مُشربتَين حُمرة:

- أنت مسؤول عن كلامك! مَن تقصد؟

- معاليكم، أنا لم أَبُحْ باسمه قط، ولا بالمعلومات التي لديَّ عنه إلَّا لمعاليكم. حِرصًا على معالجة الأمر بحكمتكم، طال عمركم، وأقترح التحقيق في الأمر، لمعرفة الحقيقة. لكن الأوراق التي بين يديَّ، حقيقةً، تثير الاشتباه حول الرجل.

- مَن هو؟

- (حمزة أمين صادق)...

- (حمزة أبو الرضا)، تقصد؟

- نعم، يا سيِّدي، لكن اسمه الرسمي هنا: (حمزة أمين صادق).

- خير؟ ما وراءه؟

- يا سيِّدي، الأوراق هذه تدلُّ على أن (أبو الرضا) قام باستغلال موقعه في العديد من المخالفات، ومنها قيامه بتوظيف أبنائه وبعض أقربائه في المؤسَّسة، واستبعاد آخَرين أفضل منهم. إضافة الى ما قام به من تأجير مبانٍ يملكها هو شخصيًّا للحكومة، ولكنه استخرج لها صكوكًا بأسماء أخرى لبعض زوجاته أحيانًا، وأقربائه أحيانًا أخرى. وهذا، يا طويل العمر، يعني ممارسة فسادٍ ماليٍّ وإداريٍّ، واستغلالًا للمنصب في منافع شخصيَّة ومكاسب أُسريَّة...

احمرَّ وجه معاليه أكثر، وزادت شراهته في امتصاص سيجارته، وطَفِق يُقلِّب عينَين كعينَي ثورٍ هائج في سحنة وليد! ولَكَمْ فَرِحَ وليد، لأوَّل مرَّة في تلك المقابلة، لما يَشهده من مظاهر تفاعلٍ من قِبَل معاليه. ممَّا زاد في حماسه واندفاعه، وهو يعرض الأوراق على معاليه، الذي أخذ يقلِّبها بأنامل راجفة، وجبينه يَتفصَّد عَرَقًا، على الرغم من الطقس الشتائي في (جُدَّة)/ المكتب. وكأنما انعقد لسان معاليه، فلم يَعُد ينبس ببنت شفة، ولا يُدخِّن، ولا يعبث بمسبحته الذهبية المطعَّمة بالياقوت. ووليد محتدم في شرحه ملابسات تلك الأوراق، وهو يحلِّل لمعاليه كيف أنها تُدين سعادة الأستاذ (حمزة أمين صادق أبو الرضا)...

- حَسَنًا... (أخيرًا نطق معاليه).

- معاليكم حَقِّقوا في الأمر.. أتمنَّى أن أكون مخطئًا. فما أريد أن أظلم أحدًا. لكن الأوراق بين يديكم، حفظكم الله، والأمر لمعاليكم.

- وصلت الرسالة.. وصلت...! اترك لي الملفّ هنا، وأنا سأنظر في الموضوع. مع السلامة.. مع السلامة...!

خرج وليد من مكتب معاليه بخُفَّي حُنَين. يَجـرُّ ذيول الخيبة، والتأمُّل، والأمل. ومرَّت الأيَّام، ومرَّت الليالي، ومرَّت الأسابيع، لا حِسّ ولا خَبَر. لعلّ معاليه ما زال يدرس الملفَّ ليتَّخذ الإجراء الحكيم، ويضع الأمر في نصابه تمامًا.

ثُمَّ ذات يوم، فيما هو يتناول طعام الإفطار في «كافيتيريا» الإدارة التي يعمل فيها، إذ رَنَّ هاتفه الجوّال على غير العادة في هذا الوقت. وإذا هو يُستدعَى من قِبَل مديره

المباشر. ظنَّ أن الأمر قد أخذ مجراه نحو الحسم، وأن معاليه بعد الدرس والتمحيص اتَّخذَ قراره الحكيم.

ذهب إلى مديره متهلِّلًا مستبشِرًا، إذا هو يناوله ظَرْفًا، ويطلب إليه التوقيع بتسلُّمه. وَقَّعَ بسرعةٍ وانصرف إلى مكتبه، لكنّ نفسه راودته على فتح الظَّرْف، ولم يُطِق صبرًا حتى يصل إلى المكتب. ويا لهول ما قرأ! كان الظَّرْف يتضمَّن إشعارًا بكفِّ يده عن العمل، ومطالبته بالمثول في موعدٍ أقصاه الغد أمام لجنة التحقيق الإدراي! ضاقت الأرض عليه والسماء، واختلطتْ مشاعره، بين الحنق والحزن والاستغراب.

ماذا فعلتُ؟!

وماذا يريد منِّي التحقيق الإداري؟

ولماذا كُفِفْتُ عن العمل؟!

لا يدري كيف وصلَ إلى بيته ذلك اليوم، لكنه وصل!

ظلَّ يضرب أخماسًا لأسداس، مالذي اقترفه؟ ما جريمته؟ وما عقابه؟

وجاء الغد، كأنما مرَّت على وليد بين عشيَّته وضُحاه دهور تَجُـرُّ في إثرها دهورًا.

إذا هو يُوجَّه لمواجهة لجنةٍ من ثلاثة محقِّقين، في قاعة في الدور السفلي من العمارة التي يعمل فيها. وَجَّه إليه أكبرهم سِنًّا لائحةَ اتِّهام باختلاس مبلغٍ نقديٍّ، حيث ذكرتْ اللائحة أنه تَسلَّم مبلغ ثمانية آلاف ريال لحساب الإدارة التي يعمل فيها، فيما المبلغ المسدَّد في الصندوق هو ثلاثة آلاف فقط.

- كيف؟ لديّ السندات التي تُثبت براءة ذمَّتي، وأن المسدَّد: ٨٠٠٠ ريال!

- بِلَّها واشرب ماءها! (قال أحد أفراد اللجنة).

- كيف؟ كيف أُتَّهم هذه التهمة الفظيعة؟! وما الذي أَبُــلُّه وأشرب ماءه؟ سَنَدٌ رسميٌّ بتسلُّم المبلغ كاملًا، مُوَقَّعٌ من الموظَّف، وعليه الختم. كيف أُثْبِتُ، إذن، براءتي من تهمتكم، إذا كان هذا السَّنَد الرَّسمي لا يُثْبِتُ ذلك؟!

- اسمع! [قال كبيرهم].. لا نريد «وَجَع الدماغ»، ولا أن نضيف إلى تهمة اختلاس ٥٠٠٠ ريال تُهمةَ تزويرك في أوراق رسميَّة! الحاسب الآلي يُدينك، أمّا أوراقك، فاحتفظ بها لنفسك، ولدينا ما يُثْبِت تزويرك فيها، وربما في غيرها. نحن نريد فقط أن نستر عليك، ولا نرغب في أن نُمَرْمِدُك في المحاكم. المطلوب الآن أن تعترف بأخذك هذا المبلغ، دون وجه حقّ، وتُسدِّده للخزينة، بلا «شوشرة»، حتى نطوي هذا الملفّ بهدوء، ويُصبح الموضوع في حكم المنتهي، وإلَّا...

دارت الأرض بوليد، وتمنَّى أن تخسف به! وقد أدرك أنْ قد دُبِّر له فخٌّ شيطانيٌّ، لا قِبَل له به، نُسِجَت خيوطه من أعلى الهَرَم، أي من «معاليه»، وصولًا إلى «مَواطيه»! وأن ذلك هو جزاء اجتهاده في كشف المحسوبيَّات، والنفعيَّات، والفساد الإداري والمالي، وما كان يفعله سعادة الأستاذ (حمزة أمين صادق أبو الرضا)...

- هاه؟ أين وصلت؟ ماذا قلت؟

- ماذا أقول؟! ما المطلوب منّي الآن؟

- «أيوه كدا.. برافو عليك!» المطلوب أن توقِّع على هذه الوُريقة، يا حبيبي...

قال كبير المحقِّقين الإداريِّين، تعلوه ابتسامة كريهة.

وقَّع وليد على الوُريقة، وهو لا يراها، ولا يعنيه ما كُتِب عليها. لقد كان ساعتها على استعداد أن يوقِّع ولو على إعدامه، ليخرج من بيت العناكب والزنابير ذاك!

كانت الوُريقة تحمل اعترافًا بما نُسِبَ إليه، وتعهُّدًا بتسديد مبلغ الخمسة آلاف ريال إلى الصندوق. ذلك ما عَرَفَه إجرائيًّا، وإنْ لم يقرأه ولم يره حين أمضى توقيعه.

وبالفعل ذهب إلى الصندوق وسدَّد المبلغ، ترمقه الأعين، بين مصدِّقة ومكذِّبة وشامتة. وما أن سَلَّم المبلغ حتى سُلِّم ظَرْفًا آخر، لكن عليه شِعار الإدارة العُليا، أي شِعار الجهة التي يقطُن فيها «معاليه»، هذه المرَّة:

((قرار إداري))

إن (مدير عام شؤون الموظفين والمستخدمين، في ...)، بناءً على الصلاحيَّات الممنوحة له نظامًا، واستنادًا إلى المواد (٨٦٠ – ٨٧٠) من لائحة التوظيف، يقرِّر ما يلي:

١ – طي قيد الموضح [اسمه وبياناته] أعلاه.

٢ – تصفية [استحقاقاته]، إنْ وُجدتْ، بعد إخلاء [طرفه].

٣- إبلاغ هذا القرار لشُعبة الرواتب والبدلات، وإعطاء الجهات المعنية صورًا منه.

مدير عام

شؤون الموظفين والمستخدمين

حمزة أمين صادق

عاد وليد سيرته الأولى. يتسكَّع بين المكتبات والأسواق والمقاهي. وقد اكفهرَّت الدنيا كلُّها في عينيه. يحلُم لو هاجر كالطائر المجنون إلى مدينةٍ أفلاطونيَّةٍ ما في فَلَكٍ ما. كلَّا، ما كان يحلُم بمدينةٍ أفلاطونيَّة، بل بمدينةٍ مدنيَّةٍ قانونيَّة، لا أقلَّ ولا أكثر. ولكن أيـَّان وكيف؟

كان يلتقي أحيانًا بزملائه السابقين في العمل، ممَّن لم يتنكَّروا له، بل لم يصدِّق بعضهم ما اتُّهم به من اختلاس. وإنْ بقي السؤال: ما الذي جعل تلك التُّهمة تُلصَق به هو بالذات؟ وقد تناهَى إلى سمعه، بعد أشهر، أن غريمه أبا الرِّضا، الذي أمضى بنفسه قرار تسريحه من عمله، قد استفحل أمره، وتوسَّعت مشاريعه، واتَّسع خرقه على الراقعين. وأن الناس قد بدؤوا يلوكون أفعاله، سرًّا

وعلانية. هناك من يدافع، وهناك من يبرِّر، وهنالك من يُدين.

- أرجو أن لا يكون دفاعكم بالباطل، أو من قبيل التحيُّز. والله العظيم، إن الحكاية معروفة للناس، ولا يمكن أن تخفَى على أحد إلى الأبد. تُـرَى متى نسمع عن محاكمة (حمزة أبو الرِّضا)، هو وامرأته، بتُهمة التزوير وتحرير صكوك شرعيَّة، واستغلاله وظيفته للتكسُّب؟!

- حبائبي، تبغون تنظيف البلاد من التزوير، وتحاربون التلاعب، والاختلاس، والفساد في كلّ مكان؟ الفساد موجود في البلديَّة، والتعليم، والصحة، والأسواق، والشركات، في القطاعات الخاصَّة والعامَّة. لكن الستر زين!

- أنا أقول: لازم يُطوَى قيده، ثُمَّ يُسجن، ويُغرَّم، ليكون عِبرة لغيره! أكثر من ٢٥ مبنى أَجَّرها للحكومة، وهي له

أو لأبناء عمومته. والدليل العمارة التي كانت تُسمَّى مركز الصادقيَّة، أخلاها وأجَّرها لحساب الدَّولة، مع أنها قديمة، استغنى عنها لقِدَمها.

- أنا أرى أنها «مرجلة» منه! وأنا أشهد أنه كفؤ! ثُمَّ حتى لو أَجَّرَ ألف مبنى، ماذا في ذلك؟! ليس في هذا شيء! لأنْ ليس فيه أكلٌ لحقوق الآخرين. غيره: عقود وهميَّة، وتوظيف أناس وهميِّين، وتزوير شهادات تعليميَّة، وينزل في حسابه ملايين، ويأكل حقوق غيره، «ولا مَن شاف ولا مَن درَى»! تعوَّذوا من الحَسَد!

- أنا لا أُزكِّي الرجل؛ لأن النفس أمّارة بالسوء، لكن كلّ الناس يمدحونه من حيث اجتهاده في العمل، وحُسن معاملته مع المراجعين، وتوسُّطه لهم. والغالبيَّة يقولون إنها مؤامرة تُحاك ضِدَّه لتشويه سمعته، ومحاولة إبعاده عن

منصبه. ونحن نُعاني من الحَسَد ومحاربة الناجحين، للأسف!

- يا إخوان، بربِّكم، أ هذا خبر يُصدَّق؟ أريد أن أفهم، الرجل قام بتزوير ماذا؟ رجل باع عمارتين على امرأته عند المحكمة، واستصدر صكوكًا من المحكمة ببيع العمارتين، وصار المُلك مُلك امرأته. ثُمَّ جاء إعلان عن الحاجة إلى استئجار مبانٍ، فقدَّمت امرأة الرجل عَرضها مع الناس الذين قَدَّموا عُروضهم، وفازت. أعتقد ما في ذلك عيب، ولا فيه حرام! وَصَلَت العُروض للجنة مختصَّة، مكوَّنة من مهندسين ميدانيّين، وتَمَّ اختيار العَرض الذي تقدَّمت به امرأة هذا الرجل؛ لأنها تنطبق عليها جميع المواصفات المطلوبة، من حيث موقع العقار وعُمره وتصميمه... إلخ. أين المشكلة؟ إجراء نظاميّ مليار بالمليار! ولكن الموضوع، وما فيه، أن هناك

أشخاصًا أتوا إلى هذا القيادي النزيه، الذي لايتوانى في مساعدة من يقصده، وطلبوا منه وضع مبانيهم المتهالكة ضمن المباني المطلوبة، فرفض طلبهم. وهذا دليل قاطع على نزاهته. وللعِلْم، فهم مَن يقومون الآن بكيد المكائد له، وإشاعة التُّهَم حوله، والتهديد برفع القضايا عليه بالكذب والبهتان!

كان وليد يسمع كلّ هذه الحِوارات والتجاذبات، ويضحك في نفسه. فهو يعرف «البئر وغطاءه»! وهو يعرف كم هو مظلم ذلك البئر، وموحش، ومليء بالأفاعي الكالحات.

كان يلتزم الصمت، فلطالما أورده لسان الصِّدق مواردَ الهلاك. غير أن ضَحِكَه صار جهرًا ذات مساء، وعلا مُجلجِلًا، حتى لَفَتَ إليه أنظار الناس في دهشة، دون أن يعرف أحدٌ سبب انفجاره بالضَّحِك كالبركان، حينما سمع

لأوّل مرَّة أن (حمزة أمين صادق أبو الرِّضا) هو ابن خال «معاليه»!

...

وهكذا، سُرعان ما فُصِلَ وليد موسى من عمله بتُهمةٍ خطيرةٍ، تتمثَّل في مشاغبة السائد والمسلَّم به. أراد أن يكون الصادق الأمين، فحوَّلته المؤسَّسة إلى متَّهم بالتزوير والاختلاس، وركلتْه إلى الصحراء. لا لشيء، إلَّا لأنه ما كان ليَقبل الفساد الإداري والمالي، ولا هُمْ كانوا سيقبلون مَن لا يَقبله!

الفصل الرابع عشر

يَلتحق وليد بمؤسَّسةٍ أهليَّة تجاريَّة. ثُمَّ يَتزوَّج من قبيلة أخواله (بني ساعدة)، ويستقرُّ إلى حين. لكنَّه ما يلبث أن يبدأ الخلاف بينه هذه المرَّة وأخواله، بل وشيخ قبيلة بني ساعدة. ذلك لأنه، كما قالوا، بدأ يطعن في عاداتهم وتقاليدهم. وجعل ينتقد شيخ بني ساعدة نفسه، قائلًا: إن سلطته لم تَعُد مقبولةً على أفراد القبيلة، وأن عصر «القَبْيَلة» قد وَلَّى. وأن «مشيخة الأختام»- كما يُسمِّيها- الوراثيَّة لا أساس لها من شرعٍ ولا قانون.

كان يحدِّثهم أحيانًا عن إدارة المجتمعات بأساليب ديمقراطيَّة، وعن التعدُّديَّة، والحُريَّة، والانتخاب، والمجتمع المدنيّ، ونحوها من القضايا. يفعل ذلك في المجالس، والتجمُّعات، بل لا يفوِّت فرصةً إلَّا ويضمِّن كلامه نقدًا

لاذعًا للأوضاع القائمة. وربما وَقَفَ خطيبًا بعد إحدى الصلوات، ولاسيما صلاة الجمعة، للنقد مرَّة والتوجيه أخرى.

وهكذا صار يُهدِّد كيان القبيلة، ومصالحها، وأعرافها، من كبيرها إلى صغيرها. كما يُهدِّد السُّلطة العُليا فيها بتشكيكه في أساليب إدارتها، بل في شرعيَّتها أصلًا. وبات لسان حالهم مع وليد، كما قال (فرعون): ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ولَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِين؟ وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وأَنتَ مِنَ الكَافِرين﴾.

كان الشيخ يشكوه إلى أخواله دائمًا. وذهب إلى أعمامه وإخوته في الجهة الأخرى يستعين بهم. لكن نُصحهم له لم يُفِد، ولم تكن بينه وبينهم سبيل التقاء، فقد كان في شارع وهم في آخر. منهم مَن لا يفهم ما يقول، ومنهم مَن يفهم ولكن لا يريد. الأمر الذي جعل أقرباءه- وقد أعياهم فهمه

وأعياه فهمهم، وأحرجهم مع شيوخهم، وصار التهديد بين المشيخة والأوساط الاجتماعيَّة لا يقتصر عليه، بل قد ينال آخَرين- يختارون وصفه بـ«العُبال» أو الجنون. وجَعلوا يستشهدون بحوادث أخرى تُثبت ذلك وَقَعَتْ له في صِغَره. وليس على المجنون- يا شيخ- من حَرَج، مهما قال أو فعل!

والحقّ أن منهم مَن كان مقتنعًا بما يقول؛ لأن ما كان يذهب إليه وليد كان والجنون لديه سواء. في حين اتَّخَذَ أغلبهم فكرة الجنون تقيَّة، لحماية مصالحهم العُليا، أو حماية أنفسهم من فتنةِ هذا الفتى المشاغب. غير أن الكذبة كانت قد تردَّدت فصدَّقها الناس، حتى مَن اختلقوها بأنفسهم.

وما زاد الطِّين بِلَّة، ما أخذ وليد يدعو إليه في ما يتعلَّق بشؤون المرأة، وصارت أفكاره حول الحِجاب الشرعي، وقيادة المرأة السيَّارة، وتعليم المرأة وعملها، قَلَقًا اجتماعيًّا مستمرًّا، كان يَعُدُّه بعضهم من علامات الساعة! ولم يَعُد

وصف الجنون كافيًا، فأردفوه بتُهمة «الحداثة» تارةً، و«العلمانيَّة» تارةً أخرى، و«الليبراليَّة» ثالثة، و«الضَّلال والكفر» في كلّ التارات. ومِن ثَمَّ لم يَعُد القَلَم- لدى متشدِّدي القبيلة على الأقل- مرفوعًا عن المجنون حتى يُفيق!

ورغم محاولاتهم تدجينه، وبشتَّى المغريات، وممارستهم عليه لُعبة العصا والجزرة، فإنهم لم يُفلحوا في تكسير رأسه. هدَّدوه بالتهميش الاجتماعي، بل بالتبرُّؤ منه ونفيه، إنْ ظلَّ في غَيِّه، وفي المقابل وعدوه بالقبول، بل بجعله مستشار الشيخ الشخصي، إن هداه الله، وعَدَل عن نزقه الفكري.

- مستشار مجنون؟!

- سلامتك من الجنون، يا أستاذ وليد، لكن ارْفُقْ بنا من أفكار «الخواجات»، التي تُعَشِّش في دماغك، وأَبْشِر بالخير! [خاطبه أحد العرائف القَبَلِيِّين].

- أيُّ «خواجات»، يا بني آدم؟!

- «الديموخراطيَّة حقَّتك»، وحقوق المرأة... ترى النسوان مبسوطات كذا! ما لك وما لوجع الرأس؟!

- ما تسمِّيه، يا عم (جُبران)، أفكار «خواجات»، هو الحقّ، والإنصاف، والعدالة، بل هي أفكار الرسول...

- «أَصَهْ»... لا أحد يسمعك، قطع الله سوالفك! طيِّب، كيف، هاه علِّمني؟!

- قَبْيَلَتْكُم هذه منهج جاهليّ، جاء الإسلام ثورة عليها. مبدأ الإمامة في الصلاة، والشورى، وعدم وصيَّة الرسول بخليفةٍ من بعده، كلّها إجراءات ديمقراطيَّة، ليختار الناس الأصلح، بإرادتهم الحُرَّة. لقد تَرك لهم شؤون دنياهم، ليختاروا، وينتخبوا، ولم يفرض وصايته عليهم. حتى إمام الصلاة، لا يجوز أن يُفرَض فرضًا، ولا أن تصلِّي أنت خلف إمام لا ترضاه. الحُرِّيَّة، والمساواة،

والكرامة الإنسانيَّة، وحقوق المرأة، وعدم التمييز العنصري، مبادئ ما كان للإسلام أن يمثِّل ثورة على الجاهليَّة، لو لم يَسْعَ إلى إرسائها.

- لا تخلِّيني أرجع في كلامي، وأتأكَّد أنك غير صاحٍ!

- لا مشكلة، الرسول نفسه اتَّهموه بأنه غير صاحٍ. اتَّهمه أمثالكم بكلّ التُّهَم الذِّهنيَّة والنفسيَّة والأخلاقيَّة، لكي يتخلَّصوا من نقده الاجتماعي، ويخلِّصوا آلهتم الوثنيَّة. وكان أشدَّ الناس عليه أهلُه الأقربون...

كان يقتعد حَجَرًا أبيضَ إلى جوار العريفة (جُبران) ابنُ شيخ الشمل، (حَنَش بن هوشان).

- امسكْ! أنت تقارن نفسك بالرسول، يا وليد موسى؟! يا عم جُبران، الرجل مخرِّف، والآن لم يبق إلَّا أن يدَّعي النبوَّة بالمرَّة!

كان جُبران ينقِّل بصره بين وليد وحَنَش، كمَن يتحيَّن فرصةً يَلِجُ من خلالها، أو كمَن يترصَّد صيدًا ثمينًا ليُوقِع به في شَرَكِه. تَردَّد قليلًا في مواصلة النقاش مع وليد، لكنه، فيما بدا، آثر استدراج وليد أكثر، ليفيض في الحديث على مشهد من الناس، كي يكونوا شهداء، وتكون ورقة أخرى يساومه بها لاحقًا، فإمَّا.. وإلَّا...

- هذا كلام، يا وليد؟ أين أنت وأين الرسول، عليه السلام؟ ثُمَّ ما الذي عرَّفك أنت بهذه الشؤون؟ هاه؟! طيَّار فاشل، وخريج جامعة أفشل! تتكلَّم في الدِّين؟ يعني مشايخ الدِّين ما كانوا يعرفون علومك هذه؟!

- أي مشايخ دِين؟ هؤلاء الذين تسميهم مشايخ دِين مشايخ دُنيا. بعضهم يعرف، وساكت؛ لأن مصالحه لا تسمح، وبعضهم كـ(أبي جهل)!

- لا.. أنت زوَّدتها!... [صاح حَنَش].

- ما لك يا (حَنَش)؟ ما الذي لَدَغَك؟! الدِّين لكلِّ الناس، يا ابن هوشان، وليس تخصُّصًا. والتاريخ متاح لكلّ قارئ. جماعتك ورثة مدرسة سياسيَّة، وليسوا ورثة الأنبياء. مدرسة كيَّفت الإسلام حسب الأعراف الجاهليَّة، منذ العصر الأُموي. أمَّا الطَّرَف الآخر، الشِّيعي، يا حبيبي، فجعلَ الدِّين نَسَبًا، وعصبيَّة، وقُربَى من الرسول. عَزَّ عليهم أن لا يستمرّ التقليد الجاهلي في الحُكم. عَزَّ عليهم أن لا تكون أُسرة الرسول هي الأُسرة الحاكمة، وإلى يوم القيامة. ككلّ الأُسَر الحاكمة في التاريخ القديم؛ خروج السلطة من الأُسرة يُعَدُّ انقلابًا على شرعيَّة الحاكم الأب المؤسِّس...

- ماذا يقول المَعْبُوْل هذا؟! [تَمْتَمَ أحدهم، فورَ وصوله إلى ذلك التجمُّع حول وليد، فيما هو ينفض شالَه اليماني من الغبار].

- يهَذْرِم[1]، كعادته؛ أنت تعرف وليد! [رَدَّ جاره، مُتَلَثِّمًا لاتِّقاء الغبار].

- مشايخك [واصل وليد الكلامَ] مشايخ سُلطان، أتباع المدرسة السياسيَّة، التي انقلبتْ على الإسلام بعد وفاة الرسول بحِين، لتُعيد النظام القديم. وكان ذلك سبب الصراع، والقتال، والدِّماء التي سُفِكتْ، بين فِكرَين، فِكرٍ ثوريٍّ تجديديٍّ، وفِكرٍ جاهليٍّ قديم. هذا الفِكر الأخير شُرْعِنَ بعد عقود، ليصبح على إحدى الجبهات تأليهًا لآل البيت، وعلى الجبهة المقابلة تأليهًا للسَّلَف الصالح، ومَن

---

[1] هَذْرَمَ، يهَذْرِم، هَذْرَمَة: قال كلامًا غير مفهوم، كالذي قد يحدث من النائم. والتعبير فصيح. فـالهَذْرَمةُ، كما في معجمات العربيَّة: أن يُكثِر الإنسانُ في كلامِه مخلِّطًا فيه. ويقال: هو السرعة في القراءة والكلامِ والمشْي. قال (ابن عباس)، مثلًا: «لأَنْ أَقرأَ القرآنَ في ثلاثٍ، أَحبُّ إِليَّ من أَن أَقرأَه في ليلةٍ هَذْرَمَةً». قيل: الهَذْرَمَة: السُّرْعةُ في القِراءة. وقال (أَبو النَّجْم العِجْلي)، يذُمّ رجلًا:

وكانَ في المَجْلِسِ جَمَّ الهَذْرَمَةْ،

لَـيْـنًـا على الدّاهيـةِ المُكَتَّمَـةْ

تبعهم إلى يوم الدِّين، وتقديسًا للقبيلة السياسيَّة التي ينتمون إليها. الإسلام صار قبيلتَين: قبيلة أهل السُّنَّة والجماعة، وقبيلة الشِّيعة والروافض، والسِّجال بينهما كالسِّجال بين (عَبس) و(ذُبيان) في حروب داحس والغبراء. بل إن عَبسًا وذُبيانَ وأحلافهما كانا أكثر عقلانيَّة، واحتكامًا إلى الحكمة والمصالح المشتركة، وانتهى ما بينهما إلى الصُّلح، وأصبح ما كان في ذِمَّة التاريخ. لكن ما العمل مع مَن يتعبَّد الله بالخِلاف، والشِّقاق، ومنابذة المخالف، ويعتقد أن قبيلته تحكم الأرض والسماء معًا، وأن الله معها ورسولَه على طول الخطّ، وأن موعده، هو وجماعته، جنَّة الفردوس، وأمّا خصومه في القبيلة المقابلة، فحَصَب جهنَّم، وبئس المصير؟! لقد صار الإسلام، يا جماعة، تُرْسًا للنِّضال

السياسي القَبَليّ. وإنها لَحَرْبُ داحس والغبراء الأبديَّة، التي تَقْسِم العالَمَ الإسلامي اليوم إلى فسطاطَين!

- «إلى فسطاطَين؟».. قالها قبلك (أسامة بن لادن)! [صاح حَنَش].

- لا تخلط الحابل بالنابل، يا (حَنَش)، وحاوِل أن تركِّز لكي تفهم!

- أنت إرهابيّ، وكلامك كلام الإرهابيِّين...

- وأنت مجرَّد طفل، ساذج...

وكادت تشتبك هنا داحس وغبراء أخرى، بالأيدي والأقدام، لولا أن العريفة (جُبران) فَضَّ الاشتباك، وأنهى اللقاء، قبل أن تسيل الدماء!

وعلى هذا النحو كانت الأحاديث تُتجاذب، كلَّما جمع وليدًا وبني قومه مقامٌ أو مجلس.

ولقد بلغَ مِن حِرص بعضهم على إسكات الرجل أن عَرَضَ عليه، تلميحًا أو تصريحًا، بنته أو أخته لتكون ثانية زوجاته أو ثالثتهنَّ أو رابعتهنَّ! إلَّا أنه عن كُلِّ ذاك أَبَى واستعصم. مِن هؤلاء الذين حاولوا استدراجه (ريعان بن حسن الحاوي)، أحد أعيان القبيلة، الذي خاطبه ذات يومٍ قائلًا:

- عِشْ حياتكَ، وكُفَّ عن الناس لسانك، يا وليد موسى! ما زلتَ شابًّا، وهناك معجبات كثيرات بك! أنا، شخصيًّا، مستعدّ أن أُزوِّجك، إذا أحببت...

- أنا متزوِّج، والحمدلله، يا ريعان!

- لكن الشَّرع حلَّل لك أربعًا!

- هذا شرع جَدَّتك، يا ابن الحاوي!...

- اتَّقِ الله، يا ابن الحلال! ما هذا الكلام؟!

- بل أنت اتَّقِ الله! المرأة لديكم مجرَّد سِلعة، تساومون بها وتُغرون الرجال؟ والنساء لديكم أغنام تجمِّعونهنّ في الأحواش!

- هذه سُنَّة الإسلام، يا حبيبي...

- خسئتَ أنت ومَن يتصوَّر هذا! ما شَوَّه الإسلام في العالَمين إلَّا أمثالك! سُنَّة الله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، ﴿ولَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ﴾. اجمع، واطرح، لتعرف المعادلة الصحيحة! ودَعْ عنك استغلال ما تُحِبّ من النصوص المجتزأة لما تشتهي من الأهواء. ثُمَّ أنت تعرف رأيي في عاداتكم وتقاليدكم في النساء. فهل ترضى لبنتك أو أختك أن تعيش معي حسب رأيي في الوضع الصحيح للمرأة في المجتمع؟!

- سمعتُ بعض أفكارك، وما صدَّقت! لكن أنت الآن تُثبت لي كلام الناس.

- ما لك وما للناس؟!

- كيف «ما لي وما للناس»؟! نحن نعيش في مجتمع، يا وليد، ولنا ثوابتنا وخصوصيَّاتنا!

- بئست الثوابت والخصوصيَّات! هذا منطق (أبي جهل) نفسه! أيُّ ثوابت؟ وأيُّ خصوصيَّات؟

- أنت «تغربنت»، وانسلخت من جلدك.. والكلام معك ضائع!

- بل أنتم انسلختم من عقولكم وإنسانيَّتكم! أعرف أنكم تجفلون من فِكرة «الأَنْسَنَة»؛ لأنها تحرمكم «الدوغمائيَّة»، و«الحَيْوَنَة»، ونَفْيَ الآخَر...

- ماذا أنت تقول؟!

- لا شيء، كنتُ أَكُحّ!... عفوًا، نسيت مستواك!...

- المرأة مكانها البيت: ﴿وقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ﴾...
- ههههه صدق الله العظيم! لكن لماذا لا تكمل الآية؟
- أيّ آية؟ واضحة ﴿وقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ﴾.. لا تحتاج تفسيرًا!
- طبعًا، واضحة؛ لأنكم كَذَبَة، ومزوِّرون، لا تكملون النصوص!
- احترم نفسك!
- بل أنت احترم ربَّك! حتى (الله) تزوِّرون كلامه ليمشي على هواكم؟! يقول تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ، لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ؛ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ، فَيَطْمَعَ الذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ، وقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ، ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ، وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكَاةَ وأَطِعْنَ اللَّـهَ ورَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّـهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.﴾ لكنَّكم لا تقرؤون السِّياق، ولا تُحِبُّون أن يَظهر؛ لأنه على الأقل

سيُضعِف استدلالاتكم، إنْ لم ينسفها نسفًا. لا تذكرون: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ، لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾، ولا ﴿ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾، ولا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّـهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ﴾! كلّ هذا تتعامون عنه، وعن غيره؛ لأنه لا يخدم طبختكم. كما تفعلون في آية الحِجاب أيضًا، التي جعلتموها ذريعةً لطمس وجه المرأة وهُويَّتها ووأدها اجتماعيًّا ومعنويًّا!

- يا وليد، ترى أنا لستُ بعالِـم. كلمة ورَدّ غطائها، نريد لك الخير، والاستقرار، والبُعد عن المشاكل...

- آلآن ما عُدتَ عالِـمًا؟! قبل قليل كنت تجادل بالقرآن! ما دُمْتَ تعترف أنك لست بعالِـم، اعلم، إذن، أن وجه المرأة لا يلزم غطاؤه عند جمهور علماء المسلمين. وأن رَبعك يدلِّسون عليك وعلى العامَّة أمثالك، وينتَقون لهم (فقط) ما يُعجبهم هُم، ويَروق للوَسط الاجتماعي الذي تَربَّوا

فيه، بعاداته وتقاليده العمياء، فيُرسِّخونه على أنه هو الإسلام، لا غير؛ الإسلام الذي «ما حصلش»، وما عداه باطل! وسأزيدك من الشِّعر بيتًا، أنا أعتقد أن منع قيادة المرأة السيَّارة عندنا هو أغبى سلوك اجتماعي عرفه التاريخ! وأن دِيانتكم هذه إنما اصطنعتموها أنتم وأحباركم اصطناعًا، وَفق عاداتكم وتقاليدكم المتحجِّرة، كما اصطنع الهنودُ دِياناتهم العجيبة الغريبة المتناسلة في عبادة البقر، وما أنزل الله بها من سلطان. بل إن دِينكم المفترَى بخلاف فلسفة الإسلام ومنطقه.

- عجيب!

- نعم، والنساء، بمَن فيهنَّ امرأة الرسول، السيِّدة عائشة، وعلى الرغم من حكاية «قَرْنَ في بيوتكن»، التي تجترُّونها كلَّما جاءت سِيرة المرأة، قُدْنَ جيوشًا جرَّارة من أقصى الأرض إلى أقصاها، لا مجرَّد عربة تافهة تسمَّى سيَّارة،

لقضاء الحاجات! لكنَّكم أنتم تعيشون خارج التاريخ البشري، بما في ذلك التاريخ الإسلامي القديم نفسه، الذي تتَّكئون عليه! أنتم فِرقة ضالَّة- لا ناجية، كما تُزَكُّون أنفسكم- تؤمنون بأن مكان المرأة المناسب هو تحت عَجَلات السيَّارة، لا خلف دَفَّة القيادة!

- خلاااااص... ما أقول إلَّا أنا أشهد أنه صَدَقَ الذي قال عنك: إنك مَعْبُوْووول... يا مثبِّت العقل والدِّين، ثبِّت قلبي على دِينك!...

ما كانت هنالك من أرضيَّةٍ مشتركة للحِوار مع وليد موسى. وما انهزم الرجل، ولا أذعن لإغراءات الجسد والمال والصِّيت، التي حاولوا إحاطته بها. وصار بَلِيَّة القبيلة لا يعرفون كيف يتفاهمون معه. وأضحت القبيلة في هرجٍ ومرجٍ، وذوو النفوذ فيها لا يكفُّون عن تهييج العامَّة ضِدَّه، سِرًّا أو حتى علانية، لعلَّ هناك مَن يَكُفّ عنهم شَرَّ

الرجل الدَّاهم، بشكلٍ أو بآخَر، دون أن يُلطِّخوا هم أيديهم به!

وما هي إلَّا أيَّام معدودات حتى تناقَل الناس شائعةً تُلَفِّق عليه- كما قال هو في مذكِّراته- تهمة أنه قال (كلمة كُفْرٍ ما) في بعض مجادلاته مع خصومه من القبيلة! وشَهِدَ شهودٌ من أهله، كان قد أعياهم حاله، وأحنقهم عناده. هم شهود زُوْرٍ، بحسب رواية وليد، تآمروا ضِدَّه، للتخلُّص من «فتنته»! فتعرَّض للسجن شهرًا، على ذِمَّة التحقيق.

- بأيِّ حقٍّ تحبسونني، يا شيخ علي؟ [سأل وليد المحقِّق معه في السجن]

- على ذِمَّة التحقيق!

- يبدو أنك تشاهد أفلامًا مِصْريَّة، والعياذ بالله!

- ماذا تقصد؟

- ليس لدينا شيء اسمه «على ذِمَّة التحقيق» هنا! سألتك: بأيِّ حقٍّ أُسجن؟ ألمجرد تهمة غير ثابتة؟!

- يعني نُصدِّق واحدًا ونكذِّب قبيلة؟!

- الحقيقة عندكم بالعَدد تُقاس؟! الرسول كان واحدًا والناس معظمهم كانوا ضِدَّه، هل هذا دليل إدانة؟!

- قلنا لك لا تتعرَّض للرسول، ولا لمثل هذا الكلام!

- أتعرَّض لماذا، إذن؟ ما مرجعيَّتكم الحقوقيَّة، إنْ لم نَقِس على السِّيرة النبويَّة؟!

(وبعد حَيرة المحقِّق، وقد صار المحقَّق معه لا المحقِّق)، واصل وليد:

- ثُمَّ قُلْ لي، يا شيخ، مِن أَيِّ دِين استقيتم عقوبة السَّجن أصلًا، على فَرض أنِّي مُذْنِب؟!

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الإسلام ليست فيه عقوبة السَّجن!

- اسمع، أنا لست بفارغ لِلَفِّك ودَوَرانك، وفلسفاتك هذه! أَجِبْ فقط عمَّا أسألك عنه!

وهكذا بقيَ السِّجال بين وليد والمحقِّق عليّ، حتى عجزوا أن يجدوا عليه مَدخلًا يُدينه. بل أصبح تهديده لهيئة السِّجن نفسها، وللمحكمة، محرجًا جِدًّا، ولا يَقِلُّ، إنْ لم يزد، على إحراجه لرجالات القبيلة. فهؤلاء، على الأقلّ، عوامٌّ، أو في حكم العوامّ، ولا تثريب عليهم، أمَّا وقد باتت الأسئلة مُشهَرةً في أنف المؤسَّسة الرسميَّة، فقد بلغ السيلُ الزُّبَى! لقد استمرَّ وليد يطرح عليهم الأسئلة وهم لا يَحيرون لها جوابًا، وإنما يلجؤون إلى قمعه وإسكاته! لذلك أُطْلِق سراحه، لعدم كفاية الأدلَّة! وأصبح الكلّ يفكِّر في كيفيَّة التخلُّص منه؛ فأين يذهبون؟! ولربما بدأ بعض الناس يُصغون إليه، ولو بعد حين، وربما جَعلوا يتفهَّمون ما يطرحه من أفكار، فيستشري فكره بين الناس، ويجدون أنفسهم أمام

أكثر من وليد موسى في المجتمع، وتلك هي الطامَّة الكُبرى، التي لا قِبَل لهم بها! وكان بعض الشباب قد اعتادوا أن يرتادوا مجالسه بالفعل، وبعضهم يردِّدون أقواله، ولا يُخفي بعضهم الإعجاب به، والدفاع عن أفكاره، ومحاكاته في سلوكه وخِطابه. كما صار بعض النِّسوة يتداولن آراءه حول المرأة وحقوقها، بين مؤيِّدات، وكُنَّ الأغلبيَّة، ومعارضات، مردِّداتٍ الاستعاذة من فتنةٍ قد اقتربت! إنها ثورة بُركان، طالما حَشَدَ أواره المسكوت عنه، وقد بات على وشك انفجارٍ، بتأجيج هذا الوليد «المجنون».

هنا اشْتَوَرَ كبارُ القبيلة مع أخواله؛ إذ قال قائلهم: لا سبيل معه إلّا الطَّرد من القبيلة، ولْيُرَبِّه غيرُنا! قال آخَر: «وامرأته، لا بُدَّ أن يطلِّقها»!

- الآن تطلبون أن أُطلِّقها؟! وكنتم بالأمس تَعرضون عليَّ الزواج، مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ، كي أسكت! المرأة لديكم مجرَّد ورقة مساومة، وبَيْعٍ وشراء، كأيِّ بهيمة!

ولكن لا حياة لم تنادي! عَرَضُوا عليه الموضوع، وأنذروه أن يُغادِر القرية في أسرع وقتٍ دون أن يَعلم أحد، وأن يُطلِّق قبل ذلك امرأته راغمًا.

- أجل؛ لا بقاء لابنتنا مع كافر! (قال أبو امرأته).

- بارك الله فيك، يا (مسعود)! [خاطب شيخُ الشمل والدَ (مَطَرَةَ)، امرأةِ وليد].

- أنا أشهد أنك أصيل. [أردف آخَر].

الأمر مع وليد موسى ما عاد مسألة عقيدة، أو لأنهم، حقيقةً، يَشكُّون في عقيدته، ولا لأنه أعياهم أن «يُدَجِّنوا المثقَّف والمفكِّر داخله»، فحسب، ولكن لأنه أيضًا صار، اجتماعيًّا، في حُكم المُهْدَر دمه، وهم لا يستطيعون حمايته، ولا

يُريدون أن يفتضحوا به بين القبائل، ويكفي ما حَدَثَ لهم بسببه من أُحدوثة طويلة، ما استطاعت التفاهم معها لا القبيلة ولا الحكومة. بل إن منهم من كان متحمِّسًا فعلًا للتخلُّص من وليد بيده، لِـما صار يُشكِّله من إزعاجٍ اجتماعيٍّ وقِيميٍّ، ولكي يُحتسَب له جهادًا في سبيل الله، ذَبًّا عن دِينه من شَرِّ ذلك الزنديق المارق وأمثاله من الرُّوَيبضة الأنجاس.

هكذا كان خِطابهم، وهكذا كانت مصطلحاتهم، ضِدَّ كلِّ من تُسوِّل له نفسه الخروج عن أعرافهم ومسلَّماتهم.

الفصل الخامس عشر

هاجَرَ وليد موسى من (بني ساعدة)، إلَّا أنه لم يستجب لطلبهم أن يُطلِّق امرأته (مَطَرَة). ولم تستجب هي- على الرغم من الضغوط العائليَّة عليها- لمخالعة زوجها، أو مغادرته.

- تبقَين مع وليد المنحرف فكريًّا؟! (قال أبوها).

- الآن صار منحرفًا؟! اقتلوني معه، لن أطيعكم فيه! هذا زوجي، بل أنا معه في كلّ أفكاره. وتصرُّفكم هذا يُثبت لي أكثر أنه على الحقّ. ولو لم يكن زوجي، لتمنَّيتُ أن يكون!

- الظاهر أنك مجنونة مثله!

- نعم، أنا مجنونة مثله! تركنا لكم العقل، فاتركونا! (صرختْ في وجهه).

- عجيب، وطلَع لكِ لسان أنتِ الأخرى؟ (وهَمَّ بصفعها، لولا أنْ سمع خطوات «المجنون الأكبر وليد»، هابطًا من الدَّور الأعلى على ضجَّة (مَطَرَة)، فنَفَضَ طَرَفَ لِـحافه وغادَرَ الدار).

لقد صارت مَطَرَة من حزب المجانين، إذن! متحدِّيةً أباها وشيخ القبيلة عندما طالبوها بفراق وليد. لقد باتت امرأة المناضل والداعم لحقوق المرأة لَبُؤَةً أشرسَ من زوجها في المواجهة. وبدا شرُّها عليهم أكبر استطارة، وشرُّ انتشار تحدِّيها بين النساء أَدْهَى وأَمَرّ. فماذا يفعلون؟! لكأنّ ما حدث من وليد لم يكن إلّا نَكْأَ جُرحٍ قديمٍ كانوا يتجاهلونه، ولا يتوقَّعون التهابه وتفجُّره في أيِّ لحظة. فليهنأ وليدٌ بمَطَرَة، حتى لا تتفاقم تداعياتٌ أشدُّ لا تُحمد عُقباها.

وبعد تَنقُّل وليد هنا وهناك، وغيابٍ عن المنطقة بِضْعَ سنين، اختفَى فيها ذِكره، وتوارَى صيته تمامًا، عاد خائفًا

يترقَّب إلى جبل آبائه. عاد إلى بيته الذي وَرِثَه وبَلَدِه الزراعيَّة الصغيرة المحيطة به، تاركًا ديار أخواله. وكان قد وَرِثَ أرضًا وبيتًا صغيرًا من أبيه، ظلَّ مهمَلًا، حتى عاد إلى استصلاحه وسُكناه في آخر المطاف.

عاد كسيرًا، يائسًا من الناس ومن نفسه. وكان صِيْتُه قد سبقه بين أطياف المجتمع الجديد القديم، مع تهويلاتِ ما يصنعه الخيال الشَّعبي.

كانت الصورة النمطيَّة الشائعة عنه، عمومًا، أنه مجنون، أو في الأقلّ أن به لُطْفًا من جنون. وهناك من بالغ في شأنه، فادَّعى أن الرجل كان يَدَّعي النُّبُوَّة، أو أنه يزعم أنه المهدي المُنْتَظَر، أو أنه يَعلَم الغيب ويتنبَّأ بالمستقبل.

عاد وليد كيوم ولدته أُمُّه، غريبًا في أرضه، كطائر (الشَّبَغْطِر). وهو طائر، يَذكُره الناس ويكاد لا يَعرفه أحد. غريب، غامض، يقال إنه طائر مهاجر، وإنه لا يهجع ليلًا.

حتى اسمه لا يُعرف أصلُه. ما سمعتُ حكايات وليد موسى إلَّا توارد إلى خيالي ذلك الطائر المجهول، أو شِبه الأُسطوري. عاد وليد مُنْزَوِيًا مُنْطَوِيًا؛ إذ لم يكن نصيبه بأحسن حالًا من الرفض والنبذ والتُّهَم ممَّا كان عليه من قبل، إنْ لم يكن أشدّ. ذلك أن المخيال الشعبي كان قد لَعِب دَوره في تضخيم أمره، وتأويل ما يُنسب إليه على أفظع الاحتمالات. وكان أعقل الناس من أقربائه يُرَدِّد تلك المقولة الشعبيَّة: «ابعدْ عن الشرِّ وغَنِّ له!». غير أن ما وقى وليدًا الشرَّ هو أنه قد أَخَذَ بتلك الحكمة الشعبيَّة بنفسه، فكَفَّ عن بعض المناكفات، وأقلعَ عن المناقشات الحادَّة، بل أَعْرَضَ عن كثيرٍ من الناس إعراضًا نهائيًّا.

لم يُفلِح في التغيير كما كان يَتوقَّع؛ فالمحيط أقوى منه. ولئن كان يشعر داخله بالانكسار، فقد كان لا يُخفي الزَّهْو بالانتصار، ولو على طريقة انتصار (صدّام حسين)، أي

الانتصار المعنوي! كان يجد ذلك في استقلاله بحياته عن الآخَرين، وفي تمسُّكه بأُسرته، وفي تمسُّكه بأفكاره، ضدّ كلّ مبيدات الحُرِّيَّة والتفكير.

ما دام وليد قد ابتعد بِشَرِّه عن الخِطاب السائد في القبيلة، وهدأتْ مشاغباتُه، ولو إلى حين، فلا بأس من غضِّ الطَّرْف عنه. وقد لا يَتورَّع بعضهم أحيانًا من زيارة الرَّجل بداره، أو دعوته في مناسبة ما، إنْ هو لَبَّى الدعوة، وقلَّما يفعل. لكنَّه ما أن يطرح بعض آرائه المعروفة، «المنحرفة»، حسب ما يصفها الناس، ما أن يعاوده طبعُه في ذلك، ولو من طرفٍ خفيٍّ- وهو بطبعه لا يطيق السكوت والاستكانة، وإنْ تصنَّعها، ضدّ طبعه- حتى يجفل عنه الآخرون، وقد يتهدَّدونه، فينكمش من جديد درءًا لما يخشاه على أُسرته قبل نفسه. غير أنهم كانوا سرعان ما يرتاحون إلى فكرة نبزه بالجنون، ليستريحوا من مسؤوليَّة مجابهته، ويُريحوا ضمائرهم

حياله، و«الباب الذي يأتيك منه الرِّيح، سُدَّه (بالجنون) واسترح!».

وهكذا ما برحتْ حياة وليد على تلك الوتيرة، منقطعًا عن عالَمٍ أنكره وعَزَلَه، بل أَلْغَى عقله، ثُمَّ سعَى ليُلغي حياته. مُقْدِمًا، مُحْجِمًا، مستعيدًا منهاجه أحيانًا في بَثِّ أفكاره وشجونه في بعض من يأنس به من الشباب، أو حتى من الأطفال، الذين طالما سمعوا حكاياته، وانتظروا معرفته عن قُرب.

ولم تكن صفة الجنون ما حاولت القبيلة تصفية شخصيَّة وليد اجتماعيًّا من خلالها فحسب، بل لقد سمعتُ عنه حكايات أخَر، لم أجرؤ على سؤاله عن صحَّتها. تذهب تلك الحكايات إلى التشكيك في نَسَبِه. وقد شاعت تلك الحكايات بعد وفاة والدَيه، زاعمةً أن وليد موسى ليس ابنهما أصلًا! وظهرتْ روايةٌ تذهب إلى أنه إنما عَثَرَ عليه (أبوه

المفترض) في الحَجِّ فتَبَنَّاه. بل الأغرب من ذلك ظهور رواية متداولة بين بعض الناس تزعم أن الرجل العائد إلى القرية بعد ذلك الغياب الاضطراري ليس بوليد موسى، لكنه انتحل شخصيَّته لمطامع، وأن وليدًا الحقيقيَّ قد توفي في حادث سير. والحقّ أن الرجل كان قد غادَرَ الجَبَل الذي وُلِدَ بين شِعافه في سِنِّ العاشرة من عُمره، وما كان يزور دِيرته إلَّا نادرًا، ولم يَعُدْ إليها للإقامة إلَّا وهو شابٌّ.

لكأنَّ الناس لم يكتفوا بتجريده من عقله، بل أرادوا تجريده من نَسَبه، وأن يستأصلوا شأفته، لو استطاعوا!

❄❄

وها أنا ذا أترك وليد موسى وشأنه- بعد قراءة مذكّراته الطويلة، المخضَّبة بدم قلبه ودموع عينَيه، وعَقِبَ حضوري أماسيَ كثيرةً من محاوراته، ولياليَ مثيرةً من

مسامراته، وبعد صَوْغِي بعض ما حكَى لي، وما كَتَبَ في مذكِّراته، وما تناهَى إليَّ من أطراف سيرته في هذه الصفحات- وما يزال في بالي سؤال، لا جواب له، لا لديَّ ولا لديه:

أ يظلُّ وليد موسى هكذا: «نبيًّا مجنونًا»، مستسلمًا لتلك الشِّباك التي ألقاها عليه قومُه، كطائرٍ يحوم في أقفاص صمته، أم هي استراحة الجَناح قبل أن يعاود التحليق؟!

الكاتب

الأستاذ الدكتور عبدالله بن أحمد الفَيْفي

- مواليد جبال فَـيْـفاء، جنوب السعوديَّة: ١٩٦٣م.
- شاعرٌ وناقد. أستاذ النقد الحديث في جامعة الملك سعود بالرِّياض، عضو مجلس الشورى السعودي، منذ ٣ ربيع الأوّل ١٤٢٦هـ= ١٢أبريل ٢٠٠٥م، رَأَسَ لجنةَ الشؤون الثقافيَّة والإعلاميَّة في المجلس، وبعضَ وفود المجلس خارج السعوديَّة.
- حَصَلَ على الجائزة الدوليَّة الأُولى في المسابقة الشِّعريَّة لمهرجان «الأقصى في خَطَر (الرابع عشر)»، ٢٠٠٩م.
- حاز جائزة نادي الرِّياض الأدبي المحكَّمة، لعام ٢٠٠٥، حول (الدراسات في الشِّعر السعودي)، عن كتابه: «حداثة النصّ الشِّعري في المملكة العربيَّة السعوديَّة».

- مُنِح جائزة (الإبداع في الشِّعر والنقد، لعام ٢٠٠١)، لأفضل كتابٍ عربيٍّ في نقد الشِّعر، عن كتابه «الصورة البَصَريَّة في شِعر العُميان: دراسة نقديَّة في الخيال والإبداع»، مِن قِبَل مؤسَّسة يماني الثقافيَّة. وهي جائزةٌ عربيَّـةٌ محكَّمة، مَقرُّها القاهرة.
- البريد الإلكتروني: p.alfaify@gmail.com
- الموقع الشبكي: http://khayma.com/faify

كُتُب أخرى للكاتب

١- (٢٠١٤). **فصول نقديَّة في الأدب السعودي الحديث**- جزءان. (الرِّياض: جامعة الملك سعود).

٢- (٢٠١٤). **مفاتيح القصيدة الجاهليَّـة: نحو رؤية نقديَّـة جديدة عبر المكتشفات الحديثة في الآثار والميثولوجيا**. (إربد- الأردن: عالم الكتب الحديث).

- (٢٠٠١). (جُدَّة: النادي الأدبي الثقافي).

٣- (٢٠١٢). **فَـيْـفاء .. هَبَّـة الطُّفولة**: (مجموعة شِعريَّة). (بيروت: الدار العربيَّة للعلوم - ناشرون | نادي جازان الأدبي).

- (٢٠٠٥). (دمشق: اتِّحاد الكُتَّاب العرب).

٤- (٢٠١١). **شِعر النقَّاد: استقراءٌ وصفيٌّ للنموذج**. (إربد- الأردن: عالم الكتب الحديث).

- (١٩٩٨). (الرِّياض: جامعة الملك سعود).

٥- (٢٠٠٩). **ألقاب الشُّعراء: بحثٌ في الجذور النظريَّة لشِعر العرب ونقدهم**. (إربد- الأردن: عالم الكتب الحديث).

٦- (٢٠٠٧). **مرافئ الحُبِّ، للشاعر سلمان بن محمَّد الحَكَمي الفَيْـفي** (١٣٦٣- ١٤٢١هـ= ١٩٤٣- ٢٠٠٠م): (ديوانٌ شِعريٌّ قام بتحقيقه). (جازان: النادي الأدبي).

٧- (٢٠٠٦). **نَقْدُ القِيَم**: **مقارباتٌ تخطيطيَّـةٌ لمنهاجٍ عِلْمِيٍّ جديد.** (بيروت: مؤسَّسة الانتشار العربي).

٨- (٢٠٠٥). **حداثة النصِّ الشِّعريِّ في المملكة العربيَّـة السعوديَّـة: (قراءة نقديَّة في تحوُّلات المشهد الإبداعي)**. (الرِّياض: النادي الأدبي).

٩- (١٩٩٩). **شِعر ابن مُقبِل، قلق الخَضْرَمة بين الجاهليِّ والإسلاميِّ**: **دراسة تحليليَّـة نقديَّـة**- جزءان. (جازان: النادي الأدبي).

١٠- (١٩٩٦). **الصُّورة البَصَريَّة في شِعر العُميان: دراسة نقديَّـة في الخيال والإبداع**. (الرِّياض: النادي الأدبي).

١١- (١٩٩٠). **إذا ما اللَّيل أَغْرَقَـني**: (مجموعة شِعريَّة). (الرِّياض: دار الشريف).

Prof. Dr. Abdullah A. Alfaify is a full Professor in King Saud University, College of Arts, Department of Arabic Language and Literature, (Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia). He is also a member of Ash-Shura Council, in Saudi Arabia. He received his education in Saudi Arabia and the United States of America. He is a poet, critic, and academic researcher. He published two collections of poetry, authored and published several books, studies and articles.

On his web-site, (http://khayma.com/faify), there are different pages about his archives and activities. Also you can visit his web- page:

http://faculty.ksu.edu.sa/dr.aalfaify/default.aspx

Books, Researches and Papers:

- The Keys of Pre-Islamic Poem, 2001; 2014.
- Faifa, (a poetic collection), 2005; 2012.
- The Critics' Poetry, 1996; 2011.
- The Poets' Titles (A Study in The Roots of Arabic Theory About Poetry and Criticism), 2009.
- Pre-Islamic poetry between Lyricism and objective Representation, 2007.
- The Criticism of Values: Preliminary Approaches to The Foundation of a New Method, 2006.

- The Poem-Novel: Genres Overlapping in The Rhetoric of The Modern Text: "The Belt" by Abi Dahman as a Model, 2006.
- A Reading in The Essential Structure of The Modern Arabic Criticism (The Book of Dr. Ahmed Dhaif, "An Introduction of The Study of Arabic Rhetoric": As a Model), 2006.
- The Modernism of The Poetic Text in Saudi Arabia, 2005.
- Ibn Mogbel Poetry: Between Pre-Islamic Era and Islamic Era, 1999.
- A Reading in The Structure of Contemplative Text (Geological Reading of "Hayy ibn Yagzan's Naba'": As a Model), 1999.
- The Visual Images of The Poetry of The Blind, 1996.
- When I Was Drowned By The Night, (a poetic collection), 1990.

In addition to other researches, critical studies and many articles in Arabic newspapers.

طائر الثبغطر

أ.د/ عبدالله بن أحمد الفَيْفي

تصويبات النسخة الورقية

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٩	٨	لم يجدو	لم يجدوا
٤٨	١٣	ومهجاة	ومهاجاة
٦١	٦	أعالى الجبل	أعالي الجبل
١١٣	٦، ٧، ٨	شط امْصَّبايا	شط امْصَبايا
٢٦٧	١٠	وما هي إلى بضع	وما هي إلَّا بضع

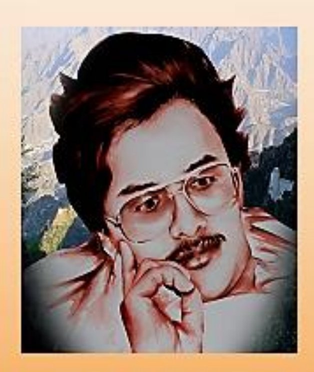
طائر الثَّبَغْطِر

رواية

يَذكُره الناس ويكاد لا يَعرفه أحد. غريب، غامض، يقال إنه طائر مهاجر، وإنه لا يهجع ليلًا. حتى اسمه لا يُعرف أصلُه. ما سمعتُ حكايات (وليد موسى) إلّا توارد إلى خيالي ذلك الطائر المجهول، أو شِبه الأُسطوري: الثَّبَغْطِر.

من المألوف أن يَعرف راعي الضأن والشاء أحوال البيئة، وتقلُّبات الطقس، وأحداث الماضي في نطاق تجربته المحدودة. لكنَّه من غير المألوف أن تجد مثل ذلك الراعي يُحدِّثك في الفلسفة، والتاريخ، والسياسة الدوليَّة، ويُتقن غير لغةٍ واحدةٍ، فضلاً عن تمتُّعه بمَلَكَة أدبيَّة، وإحاطته بشؤون الثقافة والفكر. تلك هي المفارقة التي سمعتُها عن وليد موسى، ولم أصدِّقها. وليد موسى الملقَّب بين بعض الناس بالجِباليّ، وبين آخرين بالمَعْبُول، وبين غيرهم بالطيَّار.

لم يكن الناس يَكْذِبُوْن في ما يقولون عنه، بطبيعة الحال، لكنَّهم لا يقولون إلّا ما يسمعون، ولم يكن أحدهم - وإنْ عَرَف جزءًا من الحقيقة - يعي خلفيَّاتها ويُدرِك تفاصيلها الأخرى. فيما الرجل الوحيد الذي يَعرِف كامل الحقيقة: مجنون! أو هكذا يزعمون.



أ.د/ عبد الله بن أحمد الفيفي
http://khayma.com/faify
p.alfaify@gmail.com



ISBN 978-614-01-1258-2





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

